أمين الزاوي

عطر الخطيئة

ترجمها عن الفرنسية:

محمد بوطغان

دار العين للنشر

عطر الخطيئة

روايـــة

أمين الزاوي

ترجمها عن الفرنسية:

محمد بوطغان

دار العين للنشر

الطبعة الأولى/ ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٠٠١ /٢٠١٦
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 398 - 4

بيترة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الزاوي، أمين

عطر الخطيئة: رواية/ أمين الزاوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٣٩٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٧٠٠١ / ٢٠١٦

«في دُنيَا قطٍّ، لَيسَ هُناكَ خطٌّ مستقيمٌ.
راقِبُوا قطًّا مُطارَدًا بَينَ أربَعَةِ جُدرَانٍ، مِنْ قِبَلِ
كَلْبِ صَاحِبِ البَيتِ وقُولُوا لِي هَلْ يُوجَدُ
للْقطِّ أيُّ خَطٍّ مُستَقيم».
كاتب ياسين

إلىَ رَبيعة
الشّعرُ والطُّفولةُ فِيكِ
أبَدًا لاَ يَبلَيان
أمين

عطر الخطيئة

"المقدار الوحيد للحبّ هو أن نحب بلا مقدارٍ"

القديس أوغسطين

إنَّهُ هو - وهو وحده - من قرّر الرّحيل.

عبر الهاتف أيقظني من مضجعي في هذا اليوم القائظ من أوغسطس هذا صوت ابن عمٍّ لي نسيت اسمَهُ سقط علي لِينعَى إليَّ أبي.

نهضت... ألقيت نظرةً على لون عينيَّ وعلى نظرة الإثم.

لا شيء، لا شيء!

تتملكني رغبة في شرب كمّيّة كبيرة من الخمر، أوقظ زوجتي وأتساءل: ابنُ عمي... هلْ نعى إليَّ أبي أم زوجتي؟

احتضنتُ زوجتي وقبّلتها بقوةٍّ.

أنا الآن متيقن من أن أبي هو الذي ماتَ.

وَ...

هذا الصباح، بعد ثلاثة أيّام من وفاته - ذهبت للوقوف على قبر أبي.

لم يكن يحمل حجر الشّاهدة، كان القبرُ حديثًا، عاريًا... كتلة من تُرابٍ أبيض مصفر.

لم يكن هناك تاريخ لوفاته ولا لمولده ولا آياتٌ قُرآنية.

لا جملة مكتوبة... لا كلمة.

قبر أصم أبكم.

حول هذا القبر المنسي بلا إشارة ولا روح كان يسود صمتٌ ثقيلٌ.

كانت المقبرة كلُها مقفرة. الخوف يحوم...

الجوُّ حارٌّ رطبٌ خانقٌ في هذا اليوم القائظ.

على قبره... على هذا الرُّكام من التربة والصمت الذي انتهى باحتوائه إلى الأبد، تمتمتُ أدعو بشيء منغم أشبه بآيات من القرآن أو من الشّعر... كلمات شعرية سكنت منذ طفولتي أعماق ذاتي... لم تكن إلا صلاةً، دعاءً... تأملًا...

لشعورٍ بالخوف، أو... لستُ أدري، نطقت هكذا بالشهادة:

"أشهد أن لا إله إلا اللـه وأن محمدًا رسول اللـه". واقفا على قبره حاولت إعادة تشكيل صورة أبي، لكنها كانت غامضة ملتبسة كما ضبابة صباحية ترتجف مثل عمودِ دخان فوق ذاكرتي، وتنقشِعُ شيئًا فشيئًا مع موجات هذا الحرّ الجهنمي، وتأخذ في التجلي: لقد كان رجُلًا وسيمًا احتفاليًا قصوفًا عاشقًا للجياد والكلاب والترحال والنساء... رجلًا أو الأحْرى طائرًا من سلالة نادرة.

أتصببُ عرقًا. نظاراتي الشمسيّة السوداء تحدث لي ألمًا أعلى أرنبة الأنف... صارت ثقيلة كما مشنقة، أرفعها على جبهتي وألامسها برؤوس أصابعي. شَعري وسِخٌ ملطخٌّ. جلست على حجر بين قبر أبي وقبر أمي التي توفيت قبله بعام وسبعة أشهر وتسعة عشر يومًا. سجّلت على قصاصة يوم وفاتها وتاريخ مولدها. لأوّل مرة أعرف أن لها اسمًا ثانيًا، وطوال حياتي تحت جناحيها لم أنادها إلا باسمها الآخر. ومن خلال الاسم الثاني هذا أحسُ أنَّ أمي خانتني... في هذا الاسم الثاني

- وهي مدفونة في التراب - أجدُها كما لو أنها بعيدةٌ... هي غريبة عني... هي مني على مسافة بعيدة فاصلة... هي أخرى.

أحسست الجوع، لا بل العطش أكثر - وبنظرة تطاردها هذه الشمس اللاَّهبة فحصت سور المقبرة المتعطّش للظّل.

لم يمضِ وقت طويل على طلائه بالجير... بياض ناصع لمّاَع. ها هو الحائط السّياج يحيط بالمقبرة واقفًا على أرجله أصم أخرس شبيهًا بكائن متعب يكادُ يلفظ أنفاسه الأخيرة. الحائط لا يقول شيئًا، هو ها هنا وهذا كلُ شيء.

لا شيء يتحرك.

ها أنا عُدتُ إلى جبلي الذي ولدتُ فيهِ... غريقًا...

الحياة تخْتَرقُ الجبل دون ضجّة. لا شيء... لا شيء.

أتأمل المقبرة، أترحَّم على القبور المصفوفة: الصّغيرة والكبيرة، القديمة والحديثة وأخاطب نفسي:

- "لا أرض أكثر صمتًا من هذه، لا أرض أكثر صخبًا لأُذُنٍ تتقنُ السّماع من هذه".

أُصغي إلى صفير الصّمت.

في البعيد تراءى رجلٌ - شيءٌ ذو شكل مدوَّر - مرَّ على جحش طَار شَعر ظهره. ساقاه تتدليان على جانبي الدّابَّة وتكادان تلامسان الأرض... كانتا مثل مجرفتين. كان الرّجل يستحث مركوبه ويضربه بقسوة على الجانبين والعُنق، لقد كان الجحش يتوقف فجأة ثم يسير ليقف من جديد. بين قبرَي والدَيَّ أخرجت رغيفي الملطّخ المزيت الذي كنت حملته ملفوفًا تحت إبطي الأيمن في صحيفة مكتوبة بالعربية: بعض أعواد من البطاطا المقليّة، قطعة جبن، بيضة مشوية، بعض حبات من الزيتون الأسود والأخضر، وكل ذلك مغموس في الهريسة الحمراء. في سرّيّة ودفعة واحدة شربت قنينة البيرة الدافئة النديّة برغوتها. كانت موسيقى الصّراصير تكسر من حدّة الصفير المنبعث من صمت رتيب عديم الملامح يخيّم على المكان. استأنفت صلاتي ودعائي... ترتيلي لهذا الشيء الشبيه بالآيات القرآنية أو بالشعر القديم المقفى المنغّم...

هذا اليوم المشمس ليس إلاّ بردًا مرآتيًا.

مسحت شعري المتسخ، وضعت نظّارتي على أنفي.

أفكّر في أستاذ قديم للأدب العربيّ كان يقول لنا إنَّ عرب ما قبل الإسلام، عرب الجاهلية، كانوا ينشدون الشعر على موتاهم، الشعر الجميل، شعر الخمر وجسد الأنثى والحبّ.

المقبرة تقع على ربوةٍ صغيرة جرداء تشرف على القرية القديمة - ريحانة أو ندرومة، لا يهم - من جهة، وعلى حقل واسع من الزّياتين من جهة أخرى.

من هنا أشاهد على مدّ بصري القرية وبعض منازل القرويين المتناثرة في الحواشي يحيطُ بها السّرو والتين الشوكي، وهنا في الأسفل كان يوجد وادٍ مُهيّأ. على اليمين وفي ظلّ الزّيتونة العتيقة أقيم نصب تخليدًا لذكرى قائد فرنسي قتل في سنوات الحرب من قبل فلاّحي المنطقة. لقد تحوّل... إلى مبولة عمومية.

سحابة رماديّة مذهبة تلف مساكن الوادي، وعلى الرّوابي يتراءى إكليل من البخار، سماء

القرية متشحة بلون رمادي شفاف. أنا أختنق.

المقبرة تتجاوز مساحتها الهكتارين، يا إلهي!... هكتاران من الجثث! وتراب الممرَّات غير المستقيمة بين القبور نما على حوافّه الياسمين البرّي والزعتر والأعشاب المتسلّقة ونباتات أخرى وكثير من الحشرات. وُصولي أطَار الغِربان والبُوم: آخر السّكان هنا.

تبيّنت أنَّ للمقبرة بابًا مصفحًّا بالحديد. الحارس هو من المقاتلين القدامى على الجبهة الفرنسية الألمانية، يحمل كلاشينكوف ويتمنطق بحامل القنابل اليدويّة. إنّه فخور بسلاحه وذخيرته واتخذ اسم وزارة الدّفاع.

تعرفت عليه لأول مرة يوم دفن أمّي، هو من اختار موضع قبرها في ظل الزيتونة البرّية العقيمة الوحيدة، ضئيلة هي هذه الزيتونة. أنا وزارة الدّفاع. لا يكّف عن ترديد هذا وهو ينفخ صدره أمام امرأته الجميلة الشابّة لكل زوّار المقبرة.

إنّها أصغر منه بعشرين سنةً... بأكثر... ربّما.

وزارة الدفاع، متزوّج من ثلاث نساء، ومنذ الاستقلال يسهر على حراسة مقبرتين

أخريين: مقبرة اليهود ومقبرة المسيحيين، "كلّ الأموات هم ضيوفنا دون تمييز ديني، إنّهم أهل الكتاب. كلّ ميت، في قبره، في مثواه الأخير، هو في أمان وطمأنينة حتىّ يوم القيامة... يوم الحكم النهائي"...

هذا ما يؤكده وزارة الدفاع للجميع.

هذا المساء قصّ عليَّ خبر رجل صيني:

"في مقبرتنا ينام صينيٌّ إلى جنب مسلماتنا ومسلمينا، بعد مقتله في حادثٍ تبيَّن لشركة البناء التي جلبته مع ثلاثة آلاف آخرين من العمال الذين يقومون ببناء فندق كبير من سلسلة الشيراتون أنَّ تحويل جثمانه إلى الصين يكلفها ثروة وأنَّ تحويل الجثث ليس مضمونًا في العقد الذي أبرموه مع الشركة".

بعد إجراء تحقيق روتيني وتشريح طبي شرعي للجثّة أعطت السلطات الضوء الأخضر لدفنه في تراب مسلم على أرض الإسلام لكنّها اكتشفت أنَّ الفقيد لم يكن مسلمًا ولا مسيحيًّا ولا يهوديًّا...

لم يكن من أهل الذمة... لم يكن كتابيًا... لقد كان ملحدًا، حينها لم يستطع أحد في

العاصمة، الجزائر البيضاء، أن يتخذّ القرار القاضي بدفنه في إحدى المقابر الثلاث لأهل الكتاب.

وهكذا بقي الجثمان ثلاثة أشهر في غرفة حفظ الجثث، وذات يوم تلقّيت برقيّة من وزارة الشئون الدينية والأوقاف تطلب مني المثول لدى مصالحها لأمرٍ مستعجل، أصيبت زوجاتي الثلاث بالرّعب.

في فجر اليوم التالي حجزت مقعدًا في أوّل حافلة متجهة إلى الجزائر... الجزائر البيضاء، استُقبلتُ من قبل مسئول سامٍ قدّم لي فنجان قهوةٍ وخاطبني باسمي... باسمي الحقيقي: عبد الحقَّ بن بولايْ. لأوّل مرة منذ سنوات التّكنة القاسية في إيطاليا أو سنوات صحراء الصّحارى، أسمع شخصًا يناديني باسمي: اسمي الحقيقي، مع مرور الزّمن نسيت اسمي الحقيقي. بعدها طلب المسئول من سكرتيرته الشابة الممتلئة التي بدت في حجابها وقد اتخذت كامل زينتها وتبرّجها، أن تحضر له "الملف". في هذه اللّحظة انتابني الخوف، لقد وضع المسئول المهم نظارةً على أنفه بعد نزع الأولى وفحص الملف مقلبًا بعض

الوثائق الإدارية والصّور الملوّنة وأخرى بالأبيض والأسود، وعلى مهل رفع بصرهُ الحاد صوبي وثبَّت عينيه بعينيّ وهو يعيد ارتداء نظّارته الأولى.

ودون إبطاء توجّه إليّ بقوله: "نحن مرتبكون... منزعجون أمام مشكلة خطيرة، مشكلة دبلوماسية وسياسية من شأنها أن تخلق أزمة في البلاد".

السكرتيرة ذات الحجاب عادت إلى المكتب الذي لم أكتشف ما بداخله إلى هذه اللحظة: بورتريه لرجل ذي شوارب، خريطة للجزائر، ساعة لا تشتغل، ووراء المسئول على الحائط في إطارٍ خشبيٍّ صورةٌ لامرأة تبتسم، يحيط بها ثلاثة أطفال: صبيّة وولدان.

همست السكرتيرة في أذنه اليمنى. كان في يديها ملف آخر. لقد غيّرت المرأة ذات الحجاب عطرها.

بعدها روى لي قصّة الصيني الذي لم تقبل أيّ بلدية أن تدفن جثته في أرض الإسلام. ألف وخمسمائة وواحدة وأربعون بلديّة! رشفت ما بقي من قهوتي في قاع الفنجان.

حدّقت في عينيّ المسئول الكبير، لاحظت أنّ له لحية هبط منبتها إلى عنقه، بلعت ريقي ووجهت إليه الكلام: "لا تقلقوا سيّدي، لا تتخذوا من هذه الأشياء الصغيرة هواجس ومخاوف، إنّ لديكم مسئولية كبيرة، مسئولية الأحياء، الموتى علينا نحن أن نتكفل بهم أقبلُ بأنْ أدفِنَهُ عِندَنا شَرْطَ أنْ تتَكفَّلوا بمصاريفِ النَّقلِ والدّفن وأجرة الواحد والعشرين مقرئًا الذين سيرتّلون القرآن على الفقيد".

وما أسرع ما ارتاح المسئول لاقتراحاتي، فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه المحمر المجهد قليلًا.

عادت السكرتيرة هذه المرّة وفي يدها قبضة من الأوراق النقديّة من فئة الألف دينار، وأخرى أقل من الأولى من العملة الفرنسية ووضعت ما كان بيدها أمام المسئول الكبير، بخفّة مدّ لي الرجل يده بالنقود وأضاف: "إليك كل ما يلزم".

غادرت مكتبه متوجّها إلى مصلحة حفظ الجثث بالمستشفى الكبير، يرافقني رجلٌ أعرج، استأجرت عربة 404. وضعت الجثة في الخلف ورحلت صوب ريحانة أو ندرومة. على باب

القرية القديمة استقبلتني زوجاتي الثلاث تحيط بهنّ نسوة أخريات وجمع من الأطفال وجمهور من الرجال. أنزلت الجثّة في مسجد القرية. لم تمض دقائقٍ حتى ارتفع صوت الواحد والعشرين مقرئًا يرتّلون كلام اللـه.

قمت بغسل الجثة غسلا شرعيًّا وفق شريعة الإسلام ثم قاموا بخضاب يديه بالحنّاء. طلبت من الحلاّق أن يقوم بختانه قبل وضعهِ في التراب. لم أفكر الآن بالذّات في الضرائب التي سنتها الإدارة الاستعماريّة ويدفعها المسلمون واليهود!... ضرائب تسمى ضرائب الختان. وهكذا يكون على كل ذكرٍ مختن أن يدفع 5 دورو سنويًّا قبل زواجه، و10 دورو فور زواجه.

المسلمون يسمون هذه الضريبة: "ضريبة الزّبّ".

لقد كان الصيني وليًّا صالحًا... صينيًّا مرابطًا ناسكًا! وهكذا انتشرت الشائعة بسرعة في القرى والضياع والمزارع، من كل مكان جـاؤوا... جـاؤوا راجلـين... علـى ظـهور مراكيبـهم... جـاؤوا رجـالًا ونسـاءً وشـبانًّا وكـهولًا وشـيوخًا وعجـائز... لقـد وفـدوا قوافـل ومجموعات... وليّ مؤمن تقيّ من

رسل اللـه وأوليائه قدم راجلًا من الصّين الكائنة في شرق الشّرق حيث تشرق شمس اللـه كل صباح... لقد جاء ليموت في أرض الإسلام الطّاهرة.

يقول النبي محمد: "اطلب العلم ولو في الصين".

لقد اجتمع السكان حول المسجد حيث وضع الجثمان قبل ختانه وهم يرددون: "اللـه أكبر، اللـه أكبر".

وهكذا دفن في أرضنا المسلمة الطاهرة التّقيّ الصّيني: الحاج ستين بار الشّينوي: الاسم الذي أعطاه إيّاه وزارة الدفاع. إنّه الوليّ الحاج ستين بار الشّينوي.

- بعد صلاة المغرب صلّيت عليه صلاة الجنازة ودفن.

في الغد وفد السّكان من كل مكان وبنوا ضريحًا فوق القبر. لقد أصبح قبر الحاج ستين بار الشّينوي مَزارًا يقصده المرضى للاستشفاء من الأمراض العقليّة أو الحصول على القوّة الجنسية التي تعوز الأزواج العقيمين أو المصابين بالعجز الجنسي.

كانت هذه قصّته: قصّة الحاج ستين بار الشينوي، التي يقصّها وزارة الدفاع في كل مناسبة ويضيف إليها في كلّ مرة بعض التفاصيل.

أسكن وزارة الدفاع زوجاته الثلاث في المقابر الثّلاث. بنى في كلّ مقبرة كوخًا يعيش فيه مع إحدى زوجاته، وله في كلّ مقبرة شرابه المفضّل: في مقبرة المسلمين يتناول وزارة الدّفاع الشاي ويدخّن الحشيش، وفي مقبرة اليهود يشرب البوخا، وفي مقبرة النّصارى يشرب النبيذ والشّمبانيا ويتناول الشوكولاتة السويسرية والياوورت دانون.

زوّار المقابر الثلاث يأتون من كلّ أنحاء العالم: من أوروبا، من آسيا، من أمريكا ومن إسرائيل أيضًا، لزيارة القرية والوقوف على قبور وأضرحة ذويهم للتّرحم عليهم، ويقدّمون لـ وزارة الدفاع كلّ ما يرغب فيه: الشراب، الملابس ذات الماركات الشهيرة، النّقود الأورو، الدّولار، الشّيكل، الدّرهم وحتّى الليرة التركية وكثيرا ما عرضوا عليه تأشيرات سفر وتكفلًا تامًّا بمصاريف سفره وإقامته في البلدان التي تدين بإحدى الديانات التوحيدية الكتابيّة الثلاث.

لم يغادر وزارة الدفاع هذه المدينة الصغيرة طوال حياته إلاّ مرّتين: الأولى عندما استدعي للالتحاق بصفوف قوّات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية حيث جنّد في الجبهة الفرنكو إيطالية، وقد فقد ذراعه اليسرى عندما انفجر عليه لغم. والثانية عندما ذهب إلى الجزائر العاصمة ليتسلّم تابوت الوليّ الصيني الحاج ستين بار الشّينوي.

لقد حاز وزارة الدفاع امتيازَ لقب مواطن شرفيّ في سبع مدن إيطاليّة ومدينتين فرنسيتين وثلاث مدن أمريكية، وفي القدس... وفي حيفا. ويقال إنّ بحوزته العشرات من جوازات السّفر والوثائق الإدارية المهمة...

لا يهّم، فـ وزارة الدفاع فخورٌ بوجوده حيث الأموات في حاجة لأن يكونوا وادعين وفي سلامٍ... أنّى يكون الأموات في حاجة إليه.

وزارة الدفاع يعشق الشكولاتة وقراءة الصحف الناطقة بالفرنسية التي مرّ أكثر من أسبوع على صدورها، "حتى الصحف، أحبّ قراءة الصحف الميتة!"

وهو يحفظ عن ظهر قلب بعض المقاطع من

كتاب لـ رابليه، أو كتاب رابليه كلّه. يتردّد أن وزارة الدفاع متزوّج من رومية وقعت في حبّه خلال زيارتها لقبر أجدادها، ومن حينها بقيت معه، هي أرملة شابّة من قرية فرنسية صغيرة تدعى سان جوليان مولان مولات تقع بينٍ ليون وسان إيتيان. من وقتها وهما يعيشان معًا في مقبرة النّصارى حيث بنى لها حجرةً من الطّوب على بعد مترين من قبر ذويها.

ألسنة السّوء تردّد أنّ زوجته الثالثة يهوديّة متسترة تحت اسم عربي إسلامي، تقيم قدّاس السبت وتسكر باليانسون، تقول ألسنة أخرى إنها منذ زواجهما تعيش في كوخ صغير داخل مقبرة اليهود التي خُربت كليًّا تقريبًا بعد حرب 5 يونيو 1967.

والأكيد الذي لا شّك فيه هو أنَّ السيّد وزارة الدفاع يقضي الجمعات في مقبرة المسلمين والآحاد في مقبرة المسيحيين وأيّام السّبت في مقبرة اليهود. ولا موسم ولا أحد ولا حدث استطاع أن يغيّر برنامجه الصّارم الذي التزمه منذ استقلال وطنه.

و... ها أنا.

من هنا، من بين قبري والديَّ لاحظت أن امرأة شابّة تراقبني... تتفحصّني من بعيد.

لاحت لنظري لحظة لتعود إلى الظّل في مقدّم كوخ الحارس ثمّ لتغرق في العطر... لتتداعى عطرًا في وحدتها المحنَّطة بالأرج.

كانت كما المتوحّدة، كما التائهة في هذا الصّمت الذي بلا حواف. كانت في هذا الفراغ... في هذه العدمية... في فضاء الأموات هذا كما غيمة خلّفها الفجر. جذبت باب الكوخ وراءها ولم يكن غير صفيحة من الزّنك فأحدث ضجّة كبيرة مزعجة. ها هي المرأة الشابة تتّجه صوبي.

حرّكت رعشةٌ سريعة يدها اليسرى، وتقدّمت على مهلٍ في مشية توحي بطقوسيّة ما.

غواية ما... إغراءٌ في خطوتها، في ظل نظرتها الخفيضة، في توثّباتها، في اندفاعها الذي سريعًا ما يرتّد، في حركات تعقّلها ذات الإيقاع المضبوط.

امرأة شابّة مرصّعة بألقٍ ماسيٍّ.

عادت على أعقابها. ثم تقدّمت نحوي بعينين

كانت نظرتهما بين قدميها في ارتباك فاتن، ومدّت لي يدًا صغيرةً مخضّبة الأظافر بالحنّاء لتصافحني. اعتراها خجلٌ...!

كانت تنظر إليَّ في صمتٍ. هي مثلي كانت منفعلة في صمتٍ عميقٍ تأمَّلتُها: لها جسدُ صبيةٍّ هزيلة مهملة. تتدلى ضفيرة طويلة على ظهرها هي مجموعة من الخصلات المجدولة في لونٍ نحاسيٍّ.

يداها الممشوقتان تتدلَّيان في رهافةٍ وقدماها العارِيتانِ في خُفٍّ من البلاستيك الوردي.

قلتُ لنفسي: "قريبًا لن يصير حريرُ هذا اللّحم النّاعم وهذه الشّهوة الإنسانية نائمة أو ثائرة سوى ذكرى في ذاكرة رجلٍ جاء بعد ثلاثة أيّام من دفن أبيه ليقيم الحِداد عليه".

خفضت بصري. أعدتُ قراءة ما كان مكتوبًا على رخامة قبر أمّي، أبي لم تكن على قبره شاهدة الرّخام، لا شيء قد كتب. أحسست أنّه في تربته... في قبره كما العاري.

حيّيت المرأة بإيماءةٍ من عينيَّ، وجدتها جميلة من أوّل نظرةٍ. لقد كانت معطّرة... نسيتُ

نفسي... نسيت أبي.

للمرّة الخامسة أعدت قراءة ما كان مكتوبًا على شاهدة الرخام على قبر أمي. لاحظت أنّ خطأً إملائيًا تسلل داخل النّص المؤلف من آية قرآنية من فقرتين. تلبسني عفريت... أنظر إلى المرأة: حول عنقها الممدود عقد من الأصداف الزرقاء يشبه ثعبانًا مائيًا صغيرًا.

هي العفريتة... هنا!

لها شفتان متشنجتان في تهكم ساحر!... وتبدو عليها ثلاث لسعات للذباب أو البعوض، ثلاث حبيبات محمرة، إحداها على الخد الأيمن والثانية على الجبين والثالثة على جيدها.

لماذا لدغها الذباب؟ لِمَ هو البعوض عنيف شرس معها؟

أحاول التركيز، تتملكني رعشة.

تمتمت: "ليحم الله النساء".

في حدقتيها يلتمع ألق مغناطيسي. عينا الذئبة أو عينا الفقمة... فوقهما منديل من دانتيل أبيض مربوط بعقدة وردية مغرية،

فتشت في رأسي عن آية قرآنية قادرة على إنقاذي من هذه المرأة الفاتنة.

ما عاد رأسي سوى قرعة مشقوقة بلا ذاكرة، شيء مثقوب ثقيل موضوع بين كتفي،
غمغمت بشفتي كما لو أنني أتلو أدعية ما.
أكذب! أتظاهر بترتيل شيء مقدس، أغش، أخادع، أحط ببصري على المرأة. أكتشف في عينيها رغبة جامحة... شهوة غرائزية ملحة.

كانت الحرارة شديدة... هو يوم شعراني حار كاوٍ لا يُطاق.

لفح الريح الحارة يأتينا بعطر الأعشاب البرية، مات أبي يوم 11 آب/ أغسطس.

في هذه الساعة يستسلم أهل القرية إلى أسرّتهم، في منتصف النهار ينام الناس في العراء.

اقتربت مني المرأة وتقدمت في فستانها الصيفي الأزرق الصافي بتأني أميرة أو ثعبان.

"هو جدك؟" قالت المرأة.

أجبتها: "إنه أبي".

رددت المرأة: "هو أبوك".

قلت لها وأنا أشير إلى قبر أمي: "وهذه أمي، لقد دفنوهما جنبًا إلى جنب".

رددت المرأة: "لقد دفنوهما جنبًا إلى جنب".

قلت: "لقد كانت هذه أمنية أبي".

"لقد كانت هذه أمنية جدك" رددت المرأة.

قلت للمرأة: "لا إنه أبي. جدي مدفون في مقبرة أخرى".

قالت المرأة: "جدك مدفون في مقبرة أخرى". أمنت على قولها بإيماءة خفيفة من رأسي أن نعم.

قالت المرأة: "أية مقبرة؟".

أجبتها: "لقد كان أبي دومًا يخاف الموت، وكما لو أنه أراد أن ينتصر عليه فقد ترك في الوصية التي كتبها بيده وأودعها عند الموثق طلبًا بأن يدفن إلى جانب أمي، لقد كان طفلًا على الدوام، وقد مات طفلًا".

رددت المرأة العبارة وهي تبتسم ثلاث مرات:

"لقد مات طفلًا..."

"أمي ماتت قبله بسبعة عشر شهرًا في يوم 22 ديسمبر".

"وهل تزوج من جديد؟"

والتجأت إلى الصمت، كنت أفكر في سارة زوجة أبي، استأنفت تلاوة بعض الآيات القرآنية.

فجأة غزاني وملأني وجه أختي... أختي غير الشقيقة: آية.

في آخر المقبرة نخلة نفرت بعض جذورها فوق قبر قديم ومالت متشابكة السعف فوق قبر آخر. ودون مقدمات اندفعت المرأة تروي قصة شجرة تسمى: "بلوط العذق"، شجرة أسطورية تعتبر رمز الوفاء، على أوراقها كان الشعراء يكتبون قصائد الحب. قالت هذا ثم أضافت:

- "هذه الشجرة لا تزهر إلا مرة كل مائة سنة، وتموت عقب الإزهار مباشرة". كانت تؤكد لي أن هذه القصة حقيقية، وقد رويت لها من قبل زوجها الذي أخذها عن أبيه الذي حفظها هو

الآخر عن أبيه الذي قضى حياته كلها قيمًا بالمسجد الكبير في غرناطة، ضغطت المرأة على يدي التي كانت في يدها وقالت: "في هذه الساعة من النهار جميع الناس نائمون في قيلولتهم".

وتبخرت آيات الكتاب المقدس، كتاب اللـه ورسوله.

كنت أشم عطر المرأة ورائحة الأنثى.

إنها تتأرج عطرًا، ولاحظت أنها تلوك لبانًا في فمها الصغير لتزيل به رائحة آخر جرعة شربتها من اليانسون... ربما!...

وتابعتُ حركة فكيها... لها فم جميل مرسوم في سحر فاتن بأسنان بيضاء رائعة التصفيف ولها نظرة حانية كما لو أنها لغزالة ضالة.

نزعت المرأة ملابسها بسرعة.

النار! الطوفان!

لاحظت أن لها نهدين في بياض الثلج بحلمتين ورديتين، نهدي صبية وذراعي تمثال صغير ويدي جِنّيَّةٍ... تأملت شعر عانتها، انهارت قواي!

لم أعرف ما الذي كان علي فعله.

أجلستها على ركبتي.

كانت تود أن تفرغ على ركبتي مثلما اتَّفقَ قلبها الكبير... أن تفرغه في عيني... كنت ولهًا مأخوذًا. كان جسد المرأة تحت يدي ينتعش ويرتعش والنهد تحت أصابعي جمر... ضوء...

أخذت المرأة تفك أزرار سروالي في جرأة وجسارة. استسلمت.

صرت مطواعًا كحمل، في أصابعها ما يشبه نارًا مقدسة.

في ساعة القيلولة يأوي الجميع إلى ظل الكروم أو أشجار التين. صمت المقبرة يعم المكان كله... قرية ميتة. فيلم أخرس أبكم.

من هنا كان يسمع شخير وزارة الدفاع!

ما بين القبرين - قبري والديّ - مارسنا الجنس.

في ذروة نشوتي جذبت بقوة شاهدة قبر أمي. أبي لم تكن على قبره شاهدة رخام.

عندما بلغت لذتها قمتها القصوى... سماءها

الثامنة وتحت إيقاع حركة عضوي التناسلي الضخم وهو يروح ويجيء داخلها كانت المرأة تشهق وتتغنج وتذكر اللـه دون توقف: "شكرا للـه على رحمته وعفوه".

كانت أظافرها المخضبة بالوردي - مثل مخلب الفهد - تحفر تراب قبر أبي الذي مازال نديًا، كانت تصهل من فرط اللذة... ثم راحت تأوهاتها المتقطعة تتوالى لتتحول إلى شهقات عميقة... ثم... لا شيء.

كان نفسي متسارعا وعضوي التناسلي مازال منتصبا داخل هذا الجسد الأبيض الدافئ الدبق عندما لاحظت أن المقبرة مأهولة تمامًا بجيش من الأرانب. كانت المقبرة حظيرة أرانب حقيقية مختلفة تقفز من قبر إلى آخر ولا تتوقف عن التوثب والنط حول أمها، كأن المرأة تُربِي أرانبها وسط القبور. هنا لا تجد الأرانب صعوبة في حفر جحورها وسراديبها... ملاجئها.

من أعماق لذتي الشهوانية الجسدية قرأت مرة أخرى ما كان مكتوبًا على رخامة قبر أمي. كان لها اسمان: اسم عربي وآخر بربريٌّ، كنت منزعجًا متضايقًا من هذا الخطأ الإملائي المتسلّل إلى النّص الجنائزي المكتوب على

شاهدة الرخام فوق قبر أمي. أبي ليس له حجر جنائزيٌّ بعد. ما يطمئن هو أنهم سيحصلون له على رخامته الجمعة القادم.

كان عضوي التناسلي ما يزال داخلها عندما لاحظت ثعبانًا مُمَدَّدًا فوق قبر قديم يستجمع الحرارة وقد تساقط عن جسده جلده المحروق. كانت تطن وتحوم حولنا - حول رؤوسنا - نحلةٌ بل يعسوبٌ. تحت جسدي كانت عيناها مغمضتين وهي في قمة نشوتها، إنها جميلة! ملاك. عارية تمامًا.

بعد ممارستنا الجنس انتابني شعور بالعار، خفضت بصري. أعدت وضع نظارتي الشمسيّة فوق أنفي.

تملكتني - مثل هذا الثعبان - رغبة في التّمدد على رخامة قبر أمي والبقاء معرّضا للشمس الحارقة.

بحثت عن كلمة على طرف لساني، لم أجد. رغبت في الاختفاء... في التّبخُّر... لم أستطع أن أعاود النَّظر إلى القبرين.

نهارٌ شعرانيّ جهنميّ... ليس في المقبرة الصغيرة أحد. ما زال ينبعث من جسد المرأة

عطرٌ رائع... عطرٌ مربك مذهلٌ.

عادت إلى رأسي الآيات القرآنية، بهدوء أخذت مكانها، تلوت بعضًا منها مُطأطِئَ الرأس وبصري مدفون في الضّوء الأصفر الشّديد لهذا اليوم الاستوائي. قرأت كلمات على شاهدة قبر آخر، رجل شاب اغْتَالتْهُ مجموعة إرهابية. كان عمره يوم موته خمسًا وعشرين سنةً وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا. على قبره وضع حزام من جلد وإناءٌ من الفخّار الأحمر وقطعة شمع أذابتها حرارة هذه الشمس الحارقة. عطر المرأة أثار فيَّ مرَّة أخرى شهوة الجنس... جوع الجسد... نظرت إليها، إنها كرة من حكمة أو من وَرعٍ ويداها بين ركبتيها وهي تتلو بعض الأدعية والصّلوات على قبر أمي وعلى قبر أبي.

بكت المرأة. ثم صارت انتحاباتها متباعدة وأخيرًا توقفت.

غادرت المكان مثقلًا بالهم يأكلني الندم والمرارة. في هذه اللحظة لم يكن لي من غاية سوى أن أضيع... أن أطير. نظرت إلى ساعتي اليدويّة التي لم تشتغل منذ وقت طويل. منذ الشتاء الماضي. كانت ملكًا لأبي. أنا أحتفظ بها

هكذا فقط، الوقت لا يهمُّني. المرأة تتبعني.

سمعت وقع خطواتها بنعلها البلاستيكي.
عطرها أيضا يتتبَّعني.

أخرسين سرنا جنبًا إلى جنب: أنا وظلي، وفي البعيد هناك بقرة تخور بصوت حزين مكروب.

الشمس تنزلق بهدوء على صفحة السماء المغراء التي تلف الامتداد السّديمي في روعة كئيبة محتضرة حيث ذابت تلاوين الرّمادي والأصفر والبنفسجي في خدرٍ فاتن ساحر.

ألقيت نظرة على هذه المساحة من العظام والجثث والكتابات وشواهد الرخام. ليس إلا الأرانب. كثير من الأرانب.

أحسّ أنني جلبت العار لوالديَّ وأنَّ الأموات النائمين في هذه المقبرة يرَونني ويبصقون عليَّ.

هبط الظلام على المكان وأمسى الجوّ رطبًا.

على عتبة الكوخ ضغطت المرأة على يدي التي كانت ممسكة بها في يدها وقدّمت لي تعازيها: "ليحفظ اللـه جدّك في جنته الواسعة،

في فسيح جنانه".

صوّبت: "إنَّه أبي".

"ليحفظه اللـه في فسيح جنانه، وأمك أيضًا" قالت المرأة هذا وهي تضغط أكثر فأكثر على يدي التي مازالت في يدها. جلدها ناعم في رقّة الحرير.

فكَّت ترس الباب وسحبته وفتحته. انفتح نحو الداخل ودواليبه الصّدئة تحدث صريرًا مزعجًا. بقيت على العتبة محاولًا إيجاد ملاذٍ في الظّل. لم أكن أرغب في رؤية القبور المصفوفة بانتظام.

ظهرت المرأة من جديد. كانت تحمل في يدها شيئا وقالت: "إنَّها زجاجة بوخا وصفيحة شكولاتة سويسرية وفطيرة مغمّسة في زبدة ماعز ذائبة وفي عسل ممزوج بزيت الزيتون". بهذا سلَّمت لي زوجة الحارس - السيّد وزارة الدفاع- ما بيدها.

أخذت بيدي الزجاجة من يدي المرأة البيضاوتين ونظرت في عينيها وتمتمت بالشّهادة دون أن أدري لماذا!... "أشهد أن لا إله إلاّ اللـه وأنَّ محمدا رسول اللـه".

ورائي هكتاران من القبور والجثث تقبع في ظلمة مساء هذا اليوم الدّبق الرّطب.

نظرت هناك في البعيد وللمرّة الأخيرة إلى القبرين: قبر أبي وقبر أمي.

غادرت المقبرة ونظرة زوجة الحارس. من كلّ صوبٍ أرى نهاية هذا اليوم الشاحب الرّطب تلتمع. الشمس تدخل بهدوء في عمق الأفق. وحولي أنا عاصفة وضياعٌ: "أين تذهب هكذا"؟.

وحدّثني أبي من أعماق قبره الذي بلا شاهدة رخامٍ ولا كتابة: "هل من أجلي أتيت من بعيد؟"

أجبت: "نعم. من أجلك أتيت من بعيد".

سمعت صوت أمي يهتف لي من قبرها: "إنّه يطلب منك أن تتركنا ننام في هدوءٍ... أن تدعنا في أمانٍ".

أحسست كما لو أنَّ حسكة سمكةٍ انغرزت في حلقي. وبكيتُ.

مباهج جسد دافئ

عندما اجتزت عتبة الدّار - دار أهلي الكبيرة - كان الليل قد عمَّ أو كاد. كان الظلام منتشرًا، والدّالية لا تزال هنا في مكانها.أغصانها تسلّقت واجهة منزلنا ومسكن جيراننا.

استبدّ بي حزنٌ عميقٌ دون أن أعرف لماذا. وددت أن أبكي. كنت أختنق، كما لو أنني مقيّد. لاحت لي بعض الأضواء الواهنة التي تنبعث من القرية العتيقة ريحَانة أو ندرومة - لا يهم -، وظلي يسبقني تارةً ويتبعني أخرى وفق اتجاه الضوء الصادر عن بعض المصابيح التي مازالت تقاوم هذه العتمة المبكرة، المتعجلة الهابطة على رأسي من السّماء. أزعجني هذا الظّل بشكله المشوه المجوّف المحفور الذي يبعث على الغرابة.

وجدت زوجة أبي سارة مستلقية على غطاء فراش طبعت عليه صورة كبيرة لنمر أو فهد، وقد أسندت قفاها بذراعيها العاريتين البيضاوتين بياض الثلج على مخدّة قديمة.

كانت مرتدية فستانا أزرق بلون الفيروز

الباهت، فستانا ضيقا وفضفاضا في آن... يسترها ويرسم تقاسيم فتنتها... ضافٍ يتكشف عن كعبين رفيعين ورسغين مدورين وقدمين صغيرتين.

صورة! فتنة! غزالة!

كانت مثل لعبة جميلة من الشكولاتة.

وَ... الثعلب... لقد كنتُهُ.

في الخارج كانت قطة في فترة هياجها الجنسي تهيم وتموء دون انقطاع مواءً متأوهًا مهتاجًا.

"في دنيا قط، ليس هناك خط مستقيم. راقبوا قطاًّ مطاردًا بين أربعة جدران من قبل كلب صاحب البيت وقولوا لي هل يوجد للقطّ أي خطّ مستقيم..."

لم تكلّف نفسها حتى عناء النّظر إليَّ، لم ترفع طرفها. كانت تدلك جيدها في رّقة ودلال. جيد غزالة. عطرها يملأ الغرفة. ليس العطر الذي عادةً ما يضمّخ به الأموات، والذي يسمى يلوم يلوم. إنه عطرٌ آخر أشدّ إثارةً وأكثر لطفا ورقةً.

والثعلبُ... أنا هو.

بدت لي كأنها خرجت للتوّ من حلمٍ... قفزة في العدم... في اللّاشيء. احمرّ وجهها وهي في عتمة الغرفة ضعيفة الإنارة، النافذة الوحيدة موصدةٌ والستائر المزيّنة برسوم الأزهار والحيوانات والطّيور الخرافية ذات الألوان الكثيرة كانت مسدلةَ الستائر. في الزّوايا الأربع لهذه الغرفة الظليلة المعتمة قليلة الإنارة تتّقد أعوادُ العود ناشرة أرج المسك القويّ. وعند قدمَيْ زوجة أبي كانون جمرٍ صغير وضعت في جمره قطع الصّندل والصّمغ الجاوي. كان أبي دائمًا يقول وهو يضحك عاليًا: "ليس لسارة إلا عيبٌ واحدٌ، هو أنَّ لها رائحة عطرةً تعمي عن كل الرغبات الأخرى، عن باقي المباهج واللذات". هو أيضًا كان يعشق عطرها.

سارةْ ليست إلاّ حديقةً.

بحركة كسلى متراخية كانت تروح وتتهوى بطرف وشاحها المنسوج من المُوسْلين. صارت الآن تنظر إليَّ نظرة تساؤل ثم تغطي عينيها بيدها اليسرى، لاحظت أنَّ زوجة أبي مازالت تحتفظ بجسدها رشيقًا رائع البناء، نخلة جعلتها الريح خليعة، متخلعةً لون عينيها يتغيّر مع تغيّر

صوْتِها الجميل.

أمامها... في حضورها، كنت أفكّر في أبي وقد اعتراني ذهولٌ، انتباهٌ، تأملٌ غريبٌ محيرٌّ.

نوع من الخوف أو شعور شبيه بذلك سكنني.

للمرّة الأولى نظرت سارة إليَّ كما لو كنت آخر.

لقد غرقت في التفكير... كانت كمن يرغب في الهروب، كانت حائرةً، وقد وجهت رؤيتها نحو داخلها... نحو أعماق ذاتها وكأنها تنطوي على ألمٍ... سرٍّ. حاولت أن تخفي الازرقاق الدائري تحت عينها اليمنى، هذا كل ما تمكنت من رؤيته تحت ضوء المصباح المهلل كما لو بضبابٍ.

قالت لي سارة: "لقد دفنوا أباك" ثمَّ انغلقت على نفسها في صمتٍ جليدي صارمٍ قاتمٍ.

كعادتها كانت سارة متوترة جدًّا وقد حاولت أن تحتفظ بنكهة العسل أو السّكر الذي يطبع صوتها الخفيض الذي بالكاد يسمع. العاصفة!

إنّها كالمسكونة بمس، يتغير لون عينيها، القطّة المهتاجة جنسيًا تموءُ وتموءُ.

أنا هنا غارقٌ، مطفأ في عدمي. واقفًا كنت مثل

غانيةٍ متهالكة بلا قلب. حاولت أن أخنق أنفاسي المتقطعة المتباعدة... أن أقمعها.

قلت لها: "تنساكْ الموتْ".

عقّبت: "إنّه هو. هو وحده من قرّر الرحيل كان يعشق الأسفار الطويلة على صهوة الجواد والمسالك والدروب الخرافية التي لا تنتهي، كان هكذا... وهكذا... من هذا الدّقيق هم الرجال مصنوعون... من هذا الدقيق الفريد هم الحقيقيون معجونون".

احتميت بقوقعة صمتي. كنت أصغي إليها وأنا أحدق فيها متفحِّصًا بعينَي الثعلب. وددت لو أبول.

ردّدت: "تنساك الموت".

أردفت: "لم يكن أبوك مجرّد شيء تافه يُتخلّص منه هكذا. كان هو... فريدًا حتى في طريقة ابتسامه!".

صوتها مشحون بشيء كالعطر النّادر أو كموسيقى من الجّنة، رحت أنظر إلى الطيور الخرافية المرسومة على الستارة وأنا أعدّها: واحد، اثنان، ثلاثة، سبعة، أحد عشر... فجأة

التمع في السّماء برق متعدد الألوان، ودمدم الرّعد وبدأ مطرُ السّماء حارًّا أحمرَ غزيرًا في الهطول.

تغيّر لون عينيها. نحن في أغسطس. اضطراب غريب كالإعصار بثَّ الرُّعب في قلب كلّ من يتنفس في هذه القرية العتيقة. ترقبت في صمت هدوءهنَّ: زوجة أبي، القطّة والطبيعة. راح صبري يَنْفَدُ ويتآكل وينكسر شيئًا فشيئًا. وصارت رغبتي في التبوّل ملحة، حملقت في قدميها الصغيرتين العاريتين وقد لفّتْ إحداهما فوق الأخرى.

رأت أنني أتفحصّ قدميها الشّبيهتين بزوج من طيور الجنّة. نهضت. حرّكت رأسها ووقفت أمام المرآة المثبتة بأربعة دبابيس صدئة على الحائط المقشّر من فرط الحرارة والرطوبة.

تأمّلتْ وجهها ثم مرّرت مشطها العاجيّ في شعرها الحاسرِ المحلول، لاحظت أنَّ وجهها كان ممتقِعًا ومِحْجَرا عينيها زرقاوين. كان التّعب يبدو على أهدابها. فرْقَعَتْ أصابعها.

ربما تكون قد بلغت الخمسين من العمر، خمسين سنة بالتمام أنا أصغر منها بعشر

سنوات، وربّما أنا أصغر منها بأكثر من ذلك.
لاحظت أيضًا أنَّ ضفائرها التي كانت تنسدلُ على ظهرها وتبلغ إليَتَيهَا صارت أقصر قليلًا.

حولي كان كل شيء مزلزلًا يوحي بإحساس السّقوط في هاويةٍ.

من هنا كنت أسمع نعيب بومة... نعيبًا هادئًا ومتوحشًا فظيعًا في آن واحد. لا أحب البوم ولا خُوار البقرات الهائجات جنسيًّا.

كانت زوجة أبي كلما تحركت في الغرفة تراكم وتجمّع عطرها طبقةً فوق طبقةٍ داخل أنفي، في هذه الغرفة الطويلة الضّيقة الشبيهة بهدوءٍ لا يوحي بأنه سينتهي.

في داخلها رغبة... أمنية صبيّة لم تتحقّقْ، وطوال حياتها منذ أن وضعت قدمها أوّل مرة في بيت أبي الكبير كانت دومًا الطفلة المدّللة من كلينا: أبي وأنا.

ولكن من طرف عمي أيضًا... عمي الذي مات مجنونًا ثملًا مضطرم الدّواخل في جبٍّ. لم يجدوا جثته إلاّ بعد أسبوع وهي في حالة تعفن وتحللٍّ متقدمة. أمي كثيرة الخصومات لم تحبّه أبدًا... لم ترحمه أبدًا.

أسندت ظهري للجدار وبقيت أنظر إلى الخارج. فجأةً انهمر على القرية مطرٌ غريبٌ مجنونٌ. متهربًا، كنت أراقب خيوط هذا المطر الصّيفي ذي اللون الأحمر، لون التّراب... وهو يسقط من سماء رمادية أخذت تجد زرقتها قليلًا قليلًا. طريقة واحدةٌ لمخادعة قلقي: أن أتأمل خيوط هذا المطر المفاجئ وأن أفكر في قبر أبي... في ركام ترابه الأحمرِ الذي ستجرفه سيُول الماء القويّة العنيفة. عَبرَ مارٌّ بركَ الماء المتصاعدة البخار وهو يضع قدميه على الحجارة المرميّة على الأرض المغمورة وعلى كتفيه ما يشبه الضّبابة.

فجأةً هبط الليل في الخارج حالكًا ثقيلًا. بعض النجوم الأكثر انخفاضًا كانت تحاول أن تعجّل أنوارها الضّئيلة، زوجة أبي كانت تتضّوع بعطر فريدٍ بريٍّ... تأرُّجٌ آسرٌ، فكرت في زوجة الحارس الذي تَسَمَّى بالسيّد وزارة الدفاع. الآن أدركت أنني لم أطلب منها اسمها. هي الأخرى لم تطلب مني اسمي. وماذا يهمُّ!؟ ليست هناك حاجة لمعرفة اسم الشريك حتى نمارس معه الجنس، وبشغف أيضًا. في كل الأحوال ليس للأسماء أهمية ولا امتدادٌ مؤثر: قطعت أمي حياتها كلّها... أيامًا بلياليها الطويلة هنا في

الأسفل ملفوفةً في اسم زائفٍ. ولم تستعد اسمها الحقيقيّ إلاّ بالأحرف المحفورة على رخامة شاهدة قبرها. "قضت حياتها كلّها تحت اسم زائفٍ وتنام تحت خطأ إملائي تسلّل إلى نصها الجنائزي... إلى نص قبرها. نحيا ونموت في الخَطيئة!

كم هو غريب ومضحك هذا!"

أحدّث نفسي تحت ياقة سترتي. أتأمل ضفيرتي زوجة أبي... كانتا مجدولتين بإحكامٍ إلى الأعلى ومصبوغتين بالحنّاء... بلون الآكاجو، تتدليان على ظهرها... لقد فقدتا بعض السنتيمترات من طولهما... من تدليهما...

أرسلت بصري: بدت لي عيناها عظيمتان زاد في اتساعهما الكحل الأسود البرّاق. ضفائرها مشدودة بقطعة من الدانتيل الأحمر.

بدت لي سارة مثل كتلة صغيرة من اللحم الطريّ... رشيقة رقيقة كما غزالة. استدارت كما لتتجنّب لهيب نظرتي: "اشتد الحرّ هذه الأيام وصرنا نشرب أكثر".

انفعالٌ مفاجئٌ جعل صوتها متغيراًّ متوترًا... مختلجًا... انتبهت إلى أنّني مازلت إلى هذه

اللحظة أحمل في يدي زجاجة البوخا ومعها قطعة الشكولاتة التي أخذت في الذوبان. أخذت من الزجاجة جرعة كبيرةً وتأملت بعيني مقدرًاّ ما بقي في الزجاجة من شراب.

في الحجرة المجاورة كان مقرئو القرآن يتلون بعض الآيات في انتظار العشاء وبعض الدّنانير. تجّار الآيات... بائعو كلام اللـه. انتبهتُ - وهذا بعد توقف المطر ودويها الضاج الثرثار - إلى أنه لم يكن في الغرفة الأخرى مقرئون حقيقيون ولم يكن غير جِهاز راديو كاسيت قديم يشتغل ببطاريّة مسطَحة كان يبثُ صوت المقرئ والمرّتل الشّهير: عبد الباسط عبد الصمد. صوتٌ عسليٌّ رائع! وجدته هكذا.

استدارت زوجة أبي نحوي ورمقتني بنظرها. كان وجهها مخطوفًا وشاحبًا. لعلّها وجدت هي الأخرى تلاوة القرآن جميلة وهي تترى بإيقاعٍ مغربي غير مضبوط تمامًا. جلست في تثاقلٍ وقالت لي: "فكّ ربطتَي حذائك".

الانفعال جعل صوتها الجميل أكثرَ اختلاجًا.

حللتُ نعلي، انبعثتْ رائحةُ جواربي العفنة. نظرت زوجة أبي إليَّ وهي تلمس أنفها

الأخنس قليلًا. الأنف اليهوديّ! هكذا كان ينعته أبي وهو يرسلُ ابتسامة مملوءة بالإعجاب.

لم أعد أرى الليل بالسّواد نفسه.

شربت جرعةً أخرى من زجاجة البوخا، كانت روحي تتماوجُ هائمةً.

نظرت من خلال هذه النافذة الوحيدة الصّغيرة. بدأ الزُّقاق يبدو كأنه يرتفع قليلًا على هذا الغيم الصّيفي العجيب. بقايا الزّجاج والخزف تصدر التماعاتٍ. في الأسفل... قليلًا إلى الأسفل، ما يزال السّهل محتَجِبًا تحت طيلسانه، وهناك في البعيد كان البحر يبرق بعد أن انقشع ضبابه عنه. وصار هدوء الليل رائعًا... كأنه ظلمةٌ مضيئةٌ.

اجتازتْ امرأةٌ الزقاق... عينها المحتدمة كانت تسترها تحت مَحوُكٍ أبيضٍ متّسخ. خيال رشيق! زوج عيون متوحدةٍّ.. تحت النُّور الذي بدأ يغزو الفضاء شيئًا فشيئًا.

كانت هكذا.

نظرت إليَّ ومرَّت مسرعةً تجرُّ حذاءها الخفيف على بلاط الزقاق المبلَّل. دلفت إلى بيت صغير

وأبقت بوابته مُوارَبةً. لقد استقبلها صوت رجلٍ متوترٍّ. وبعدها لم يعد يسمعُ شيءٌ.

"ليحمِ اللـهُ النّساء".

"لقد طلبنا شاهدة قبر أبيك من الرّخام المنحوت" ألقت زوجةُ أبي هذا على مسامعي. كانت تودّ أن تُفهمني أنَّ أمي - غريمتها- لم يكن لها على قبرها غير شاهدة من الرّخام الصّناعي... من الرّخام الزّائف. نظرت إليَّ. خفضت بصري، فوقع على قدميها الصّغيرتين كأنهما من شمع أبيض... زوجٌ من الطّيور البيضاء. رفعتُ بصري إليها... وخفضتْ بدورها عينيها.

قلتُ لنفسي: "لم أقتل أبي".

توقف المطر عن الانصباب. عاد الضوء ينير القرية والسّماء صافيةً. تقريبًا. الخفافيش تدور وتصر حول شجرة مضاءةٍ بمصباحٍ عموميٍّ. راحت زوجة أبي تتأمل صدرها نصف العاري وتغلق مناخير أنفها الجميل بأصابعها الشمعية البهيّة التشكيل... الجميلة بلونها الأبيض اللّماع الفريد ثم بدأت تتحدّث كما لو إلى نفسها.

"عندما أكون حبلى بولدٍ يسيرُ كلُّ شيءٍ على

ما يرام، وعندما تكون بنتًا ينْتَابُنِي دومًا غثيان وقيءٌ وآلامٌ في الرأس... وكوابيس في اللّيل! لماذا تتكلم زوجة أبي هكذا؟ إنّها تهذي. رغم أنها لم تنجب ولدًا أبدًا. بلى نسيتُ. لقد أنجبت ولدًا وحيدًا ماتَ أو - الأدق - قتل من طرف أمي - غريمتها - ولمْ يعثرْ على جُثَّته أبدًا... هذا ما تقوله ألسنةُ السّوء".

كنتُ أرغب في ابتلاع جرعة أخرى من البوخا، الماء الحيّ أو ماء الحياة[1]. التفتت إليَّ زوجة أبي وغيّرت موضوع الحديث. لا يهم: "كان يضاجعني مرة في الأسبوع. يقول لي إنّه من حقي إقامة قداس السبت، كأس الأنيسون، لذَتي الجنسية وصلاتي. وعندما يقضي واجبَ السبت المقدّس ينامُ. كان يشخرُ. موسيقى شخيره جميلة. وكنت أضطر إلى هزّه كلّ ليلة وأنا أقول له: استدرِ على جانبك. لقد كان رجلًا. لحمًا وحشيًّا مُتيقظًا... جسدًا... موسيقى... ومِخدةًّ!".

كانت تتكلم عن أبي وهي تنظر إلى عينيّ مرّة، وإلى زجاجة الماء الحيّ التي ما زلتُ أحتفظ بها في يدي مرةً أخرى.

كنت أوّد أن أقول لها بأنني لم أقتل أبي، لكن

كنتُ أحسّ بلساني داخل فمي مربوطًا... محاصرًا... فقدت الصّوت... حجرٌ يملأ فمي... وصلت إلى أنفي أخيرًا الرّائحة الكريهة المسمومة التي كانت تنبعث من جواربي الوسخة ومن قدميَّ اللّتين تشبهان قدمي أبي. أخفيت رجليْ تحت حصير الحلفاء.

أعرف أنّه ممنوع على زوجة أبي أن تزور مقبرةً إسلاميةً. لهذا سكنتها غيرة حارقةٌ نحو أمي التي تنام إلى جانب أبي رجلهما المشترك، النّوم الأبديّ.

نظرت إليَّ نظرةً ثاقبة وهي تقول:

"محكومٌ عليّ أن أبقى أغارُ منها في الحياة كما في الممات!.

هذه الغيرة ستلازمني حتّى التّراب... حتى الرّماد".

أعلم... بل أنا متأكدٌ من أنّ سارة وعلى غير علم الفضوليين والغامضين من سكان القرية القديمة هذه - ريحانة أو ندرومة، لا يهم - وبتواطؤٍ من الحارس السيّد وزارة الدفاع وتستّره، وبموافقة زوجته التي ضاجعتها ومارست معها الجنس بين قبرَي والديَّ، والتي

نسيت أن أطلب منها اسمها أعلم... بل أنّا متأكد من أنَّ لسارة طلعاتها الليلية. من يوم الدّفن تقضي لياليها ممدّدة على قبر أبي تصلي وتتلو أدعية يهوديّة حتّى الفجر، وعندما يرتفع صوت المؤذن يهدهِدُ الظّلام كانت تمارس العادة السّرية على تربة قبره ثم تعود إلى غرفتها في هذا البيت الكبير القائم في هذا الزّقاق الخانق. كانت تريد أن تزعجَ أمّي في هدوئها... في طمأنينتها. "تحت حِملٍ من التراب، أزعجها، أقلقها، أخيفها... سأتتبعها في أعماق قبرها".

خفت. أخفيتُ بصري بين رِجليَّ الوسختينٍ. انتبهت إلى أنّ جواربي مثقوبة وصغيرة جدًّا.

استدارت زوجة أبي مواجهة المرآة. نظرت إلى نفسها. بحثت عنّي من خلال الزّجاج المغشّى بالبخار.

انتبهت إلى أنني لم أحلق ذقني منذ ثلاثة أيام. لعلَّ لي رأس سنتور Centaure. قرأتُ هذا في عيني سارة.

استدارت إليَّ، ضمَّتني بين ذراعيها. في هذه اللّحظة بكيتُ أبي بحرارة. ووجدت عطرَ سارة.

نصف زجاجة البوخا الذي ابتلعته ساعدني على الانفجار بالبكاء والانتحاب بين أحضان سارة الدّافئة. وفي هذه اللّحظة اكتشفت سارة فيَّ رائحة أبي. ضمّتْ جسدي بقوّة. هي قصيرة. أحسستُ أنني أكبر منها بكثير.

ليحم اللـه النّساء الصّغيرات الكبيرات!

على الضوء الأصفر لشمعةٍ تناولنا معًا عنقودًا من العنب الحلو: حبّة بعد أخرى، العنب ناعمٌ. له مذاقٌ فريدٌ نادرٌ. الليل قصيرٌ. حُلمٌ.

أحِسُّ نفسي حرًا طليقًا، عندما خلد الرّاديو كاسيت إلى الصّمت ليلًا، لم يعد هناك لا تلاوة القرآن من قبل المقرئين تجّار الآيات ولا الرّاديو كاسيت الذي يشتغل بالبطارية المسّطحة.

كانت تأوّهات سارة وتغنجاتها قويةً وعطرها يغطّي الليل بكامله. بين أحضاني لم تكن إلاّ طفلةً محطمةً.

قصّة ملكِ الغُبار تلك

كان عنقود العنب ما يزال يتدلّى بين أصابعي عندما انفجرت سارة في انتحاباتٍ متواصلة حادةٍّ.

لا أدري كيف طبعت قبلةً في شكل فراشة على عنقها الطويل الذي يشبه جيد الغزالة وقبلةً أخرى على جبينها الملتمع ببعض حبّات العرق. ثم بدأ صوتها يأخذ حجمه الحقيقي. أعرف أنَّ لونٍ عينيها يتغيّر كالعادة. بين ذراعيَّ كانت طفلةٌ مطاردةٌ من طرف ذاكرة جماعيّة محمومة مضطربة. بدأت تقصُّ عليَّ قصة زواجها من أبي وحكاية أحد أجدادها. قصّتان مثيرتان. وكلّما توغل لسان سارة في تفاصيل الزّمن والشخصيات والأحداث كلّما ازداد قلبي انقباضًا وتلاشت لذّة ونعومة طعم العنب اللّتان نعمتُ بهما في هذه الليلة الموشّاة بالزّهر... المتأرِّجة:

"لقد كان رهانًا، لم يكن أكثر من رهانٍ حول قدحٍ من الخمر، ما قادني إلى سرير أَبيك... إلى حياته. لقد كان رهانًا بين رجالٍ... رجالٍ

حقيقيّين.

كان أبوك شابًّا استدعي ليجنّد في الجيش الفرنسي، وكان متزوجًا من أمّك زهرة. كلّ واحد من رفاقه كان يصحب معه امرأةً وهم حول مائدة شرابٍ.

الذي لا يعثر على امرأةٍ تُنادمهُ يغرَّم بدفع ثمن زجاجةٍ من النبيذ وثلاثة أدوار من الأنيسون".

"يستحق هذا الحضور... هذه الصّحبة العناء".

أبوك كان وحيدًا بلا امرأةٍ... بلا صحبةٍ... وكانوا قد بلغوا كأس الأنيسون الثالثة.

قدح إضافيّ.

ثمّ آخرُ بدأ مفعوله يلعب في الرأس... وحسم الأمر. حُسم الأمرُ.

وها هو أبوك في الحال... يسرج فرس ضابط ويعتلي صهوتها ويستحثّها بضربة خفيفة على البطن ويتوّغل في سواد أزّقة المدينة. أتى يبحث عنّي في حوشنا في طرف هذه القرية العتيقة ريحانة. تبعته بلا ترددٍ. دون أن أسأله حتى إلى أين نذهب، كان الأمرُ هكذا. الحيوات

الجميلة تبدأ دائمًا بقصص عاديةٍّ وربّما غريبةٍ قليلًا. ومن حينها لم أفارقه.

أحببته كما كان. رجل رهان. في ذلك المساء رقصتُ رقصةَ الثعبان الأسود
J’ai dansé au serpent noir الموتُ
وحده كان هو الذي فرّقنا.

ردّدت: "تنساك الموت".

لقد كان رجل احتفالٍ وقصفٍ.

رفعت بصرًا مذهبًاّ بفعل توهج لهب الشمعة، بشرتها البيضاء كانت تُربكني. عنقود العنب سقط على الأرض.

انتبهت إلى الزّجاجة في يدي. وسمعتُ رجال الرّهان يضُجون داخل رأسي... جمهرةٌ مبتهجةٌ متحلقةٌّ حول كأسٍ وأغنيةٍ. صورةُ زوجة الحارس وزارة الدفاع عادت، هي تسكُنني: في ذروة نشوتها مثل حيوان متوّحش وهي تنشب أظافرها في تربة قبر أبي الدّافئة، وأنا أتصبّب عرقًا وقد شددت على شاهدة قبر أمي زهرة: هذا الحجر اللّعين بخطئه الإملائي المندسِ في إحدى الآيتين القرآنيتين المكتوبتين بخط رديء خاطئ هو مزيج من

النّسخ والديواني. نظرت إليّ ثم مالت قليلًا برأسها على كتفي وبدأت تقصّ على مرآتها. انفعال عميقٌ جعل صوتها العسليَّ يختلج وهي تصُّب سُكّر كلماتها في أذني:

"لقد كان...

كان مسكونًا بالرّيح.

لقد كان المطر والريح. الرِّيح الوحيدة التي لم يحبسها الشّيطان في قرَبه... حرٌّ."

كان جارنا، واسمه إسحق، قويًّا، ذكيًّا ووسيمًا.

وهو صغير كان في استطاعته أن يصرع جميع أطفال القرية، كان يمسكهم واحدًا واحدًا ويسقطهم أرضًا وهو يضحك.

ملاكٌ في جسم عفريتٍ.

عفريتٌ ملائكيٌّ.

حتّى يُريني جسدَه، كان إسحق ينفخ صدره ويتنفس ملء رئتيه الهواء المليء بالغُبار. وفي زوابع الغبار التي يثيرها المتصارعون لم نكن نميّز إلاّ أسنانه البيضاء كالثّلج وضحكاته التي تزهر على زوايا شفتيه. واثقًا كان يتقدّم

بخطوةِ شبل صوب الأطفال الذين يريدون التغلّب عليه... إسقاطه.

وثبة واحدة وترى خصومه يتساقطون واحدًا بعد الآخر كالنّمل، وينفجر إسحق ضحكًا كرعد صيفي.

وأنا من بعيد معلّقة إلى نافذتي المشبّكة، ارتجفت وأنا أشجّعه مصفقةً صائحةً عاليا: "اقتلهم، كلّهم، أنت الأقوى، أنت السّلطان!" من الأعلى كنت أمام هذه العروض على حافة الجنون أو الابتهاج.

لقد كان هو... إسحق!

في يوم من الأيّام جاء الباش آغا على فرسه وسرجها مزينٌّ بالحرير موشّى بالذّهب: رجلٌ قصير القامة غزير الشعر، رجلاه بالكاد تصلان إلى ركابه، لحيته ترتسم على حدود رقبته وحوافّ خدوده المنفوخة قادته في رحلته التفقّدية السّنويّة التي يقوم بها إلى أراضيه التي يقوم بفلاحتها مئات من فلاّحي ضيعتنا إلى السّاحة العموميّة حيث يعلو الغبار وحيث يلعب الأطفال كعادتهم. في هذا اليوم شهد معركة أطفالٍ واجه فيها إسحقي سبعة أطفالٍ

آخرين.

كثير من الأطفال قدموا من القرى والدّواوير المجاورة. كانوا يحاولون رميه على الأرض... يحاولون الانتصار عليه. ولكنّ إسحقي خرج منتصرًا ككل مرة.

في تلك اللحظات كانت الفتيات مهتاجات مضطربات وقد خرجن على عتبات بيوتهن المبنيّة بالطّوب والمحيطة بالسّاحة المتربة لتشجيع إسحق وهنَّ يرقصن ويرفعن ذيول فساتينهن لتتكشّف سيقانهنّ الصغيرة البيضاء النّضرة.

عندما رأى إسحق الفتيات، نفخ صدره الواسع القويّ الذي لم يكسه الشعر بعد وليس عليه إلا زغبٌ. ملأ رئتيه هواءً، مسح أنفه ورفعه عاليًا. انفتح منخراه... كان يشبه حصان سباق. شجعته الفتيات بحماسٍ كبير ليضاعف جهوده حتى يظلّ سيّد الساحةً المتربة... أمير ساحة الغبراء.

وهكذا لقّب: ملك الغبار. في هذا اليوم اجتاز السّاحة الباش آغا على ظهر جواده متبوعًا بوالدِ إسحق الذي يعمل عنده كموثّق

محاسب. تأمل الباش آغا مشهد المتصارعين للحظاتٍ.

أخذ الزّهو والفخر والد إسحق بابنه... بشبله، فوجّه كلامه للباش آغا: "مولاي... إنَّ الذي في مقدوره أن يغلب ابني لم يولد بعد!".

رمق الباش آغا الوالدَ الذي يسمى هو أيضًا إسحق بنظر ملتهبٍ متسائلٍ.

طلب الباش آغا - القزم ذو الشعر الكثيف - من والد إسحق: "هات لي بسرعة هذا الولد. أريدهُ هذا المساء".

هذيانٌ.

"لقد كان...

لقد كان إسحق الشّخص الذي يثير الغبار الأكثر التماعًا بالبهجة والسّعادة و... يقظًا كل الوقت، كان يعرف كيف يُشيعُ الضّجّة واليقظة في القرية وفي القلوب أيضًا. كلّ ما يتحرّك في حيّنا. في ضيعتنا البائسة كان هو الذي يحرّكه".

طأطأتْ زوجة أبي رأسَها. صمت. زفير.

"لقد كان عصفور السّاحة الغبراء، مرنًا وشديدًا، كان يعفرُ جميع صبيان سنّه في الغبار. جمْهَرةٌ من الصّبيان تمشي تحت أوامره. لقد كان له صوتٌ مشمسٌ".

سارة تتكلم بسرعة، أَفقِدُ خيط أحداث القصّة ثم أقبض عليه في نور عينيها.

عندما انتهت الدوريةُّ عاد الباش آغا إلى بيته يتبعه الوالد والصّبيُّ المصدوم. لقد أعمى الحقد والوحشيّة عيني الباش آغا. كان مضطربًا وفي يده كوب شايه عندما طلب حضور حلاّقه في الحال.

أطلق عبارةً مُزبدةً: "أريد الحلاّق". وفي طرفة عين كمن هبط من السّماء - جثا بين يديه وهو يرتجف خوفًا. أمره الباش آغا: "أوقد النّار وأحمِ مِقصَّاتكَ..."

ثم طلب من الوالد وهو يرتشف مشروبه الفاخر أن يربط ذراعي ورجليْ الصّبيِّ الشَّيطاني.

بكى الوالد. ارتعشت يداه.

لم يفهم الطّفل شيئًا... لم يع شيئًا. كان ينقل

بصره من والده إلى الباش آغا ثمَّ إلى الحلاّق وأدواته في كانون الجمر بنظرةٍ خائفةٍ زائفةٍ.

وأضاف الباش آغا: "يهوديٌّ يغلب أطفالًا مسلمين ويطرحهم أرضًا! إنّه العار! إنّها الآخرة! إنّها علامة القيامة! هذا الصّبيّ هو اللعنة التي حلّت بقريتنا... بديننا. وعندما يكبر ما الذي يتورّع عن فعله مع نسائنا... مع بناتنا... مع ديننا؟ سيضاجع جميع النساء.... يفضّ بكارة الفتيات البالغات كلّهن".

ثمّ أردفَ الباش آغا: "هذا الولد خطرٌ حقيقيٌّ يتهددُّ النّساء والدّين الإسلامي".

من الأسفل وبنظرة منكسرة غمغم الوالدُ بجملةٍ تُسمع بصعوبةٍ: "إنَّه ابني يا سيّدي الباش آغا".

ردّ عليه الباش آغا: "اِئتِني في الحال بهذا المُهرِ. بهذا اليهوديّ الصّغير المقمّل. أريده في استعراض هذا المساء في فنائي". لم يكن للأب خيارٌ آخر غير أن يصطحب ابنه إلى سيّده والرّعب يملأ بطنه وضربات قلبه تدقٌّ بشدّة.

غادر إسحق الساحة الغبراء تحت تصفيقات بعض الصّبيان ورقصات وصياح الفتيات.

سأل إسحق من والده: "إلى أين نذهب يا أبي؟".

ردّ الأبُ بِصوْتٍ كسير مختنقٍ لا يكاد يسمع: "الباش آغا يرغب في رؤيتك".

كانت سارة زوجة أبي معلّقة بسير حكايتها وهي تقصّها بصوتٍ مختلجٍ بالتوتّر وترفع إليَّ عينين مِلؤهُما دمعٌ وهي تنظرُ إلى عضوي التناسلي بين فخذيَّ.

إنّها ترتجف.

كانت كمن تحدّث نفسها.

قيّد الولد. وكالمعتادِ حلقت رأسهُ وحواجبهُ وأهدابه. كان ممددًا على ظهره ويداه ورجلاه متباعدة مشدودة إلى أربعة أوتادٍ مغروزة في الأرض. تركه في الشّمس ثلاثة أيّام وأربع ليالٍ وترك المسابرَ والمقصاتِّ أيضًا ترقد في النَار.

وفي اليوم الرابع والطفل مربوطٌ بإحكام، كان الباش آغا يترشّف مشروبه الحلو تحت ظل شجرة خرّوب، وخرج عن صمته صائحًا: "ستكبر وستضاجع جميع نساءِ مملكتي. ستزرع ريح الفُسوقِ والزّنا والآثام الكبائر. ستكون اللّعنة

التي تضرب البلد. يجب اقتلاع خصيتيكَ!"

تقدّم الحلاّق في صمتٍ، بقداسةٍ، رحيمًا جبانًا. طلب الوالدُ من الباش آغا أن يأذن له بالانسحاب. لم يكن في قدرته أن يرى هذا المشهد.

وهو يشرب مشروبه تفضّل الباش آغا، الرّحيم بمنح الوالد امتياز الانسحاب.

بحركةٍ جامدةٍ قطع الباش آغا الكرتين الصّغيرتين بنصلٍ محمرٍّ تُركَ على النّار القاسية ثلاثة أيّام.

رفع الصّبي إلى السّماء صوتًا حادًّا لاذعًا قويًّا.

بكى الوالدُ وغصَّ بدموعه وأغمي عليه.

ويحكى أن إسحق الأب فقد حركة رجليه منذ هذه السّاعة المشئومة... ساعة البتر، ساعةِ استئصال علامة ذكورة إسحق الصّغير، وهكذا بقي مشلولًا.

اتّقدت شعلةٌ في عينيها الملتمعتين. الآن أدركُ أنّها في حزنها، بأنفها الأخنس - الأنف اليهوديّ - كانت جميلة... جميلةً جدًّا. وطوال حياتها كانت

قادرةً على إشعال نار الغيرة في قلب أمّي، ضرّتها.

"في المساء جاؤوا به إلى بيته. كانت أمّه تنوح. النّسوة الأخريات أيضًا. منذ هذا اليوم انسحب إسحق من السّاحة الغبراء، مملكته. وهكذا صار ملكُ الغبار مخلوعًا ومتروكًا مهملًا. الفتيات أيضًا تركن السّاحة وتخلّين عنها. لم يعدنَ يفتحن شبابيكهنَّ للتّمتّع بمشاهدة ملك الغبار. وغرق الأطفال في الصّمت... صمت مقبرة.

وهكذا هُجرت السّاحة. الفراغ والعدم". طوت زوجة أبي لسانها ونهضت لتتأمّلني. كنت منكسرًا... منفعلًا.

"بعد عامٍ طلب الباش آغا إسحق الصّغير ليرعى قطيعه، بهذا وجد إسحق فضاءً آخر. كان يغادر القرية في الصّباح الباكر ليعودَ مع حلول الظّلام. على المرتفعات كان يقضي أيّامه يتأملُ القطيعَ يرعى العشبَ حول حوضِ ماءٍ مملوءٍ صافٍ. كان ينظر إلى وجهه من حين لآخرَ على مرآة الماء المترقرقةِ البرَّاقةِ ويصغي إلى السّماء التي لم تكن تقول شيئًا. ويتعاقب شتاءٌ بعد خريفٍ وصيفٌ بعد ربيع، لينسى جميع أهل الضّياع المجاورة قصّة إسحق. ويُنسى

وراء قطيعه.

كان يومٌ قرّر فيه الباش آغا القيام بدوريّة لتفقّد راعيه. عندما اكتشف الباش آغا أنّ القطيع كبيرٌ، جيّد الغذاء، محروسٌ بعناية، سيطر عليه حنَقٌ وسُعارٌ وتساءلَ: "كيف لهذا الصبّي الرّهيب أن يحرس كلَّ هذا القطيع بمفرده"؟. وعندما وقف الباش آغا أمام الراعي الصّغير تملّك الرّعب هذا الأخير.

من على صهوة حصانه طلب الباش آغا من الصّبي: "كم من الكباش ومن النّعاج ومن الماعز في قطيعي؟"

أجاب الولد: "سيّدي الباش آغا. قطيعك يتكوّن من ثلاثمائة وخمسة وعشرين كبشًا ومائَتَيْنِ وثلاث نعاجٍ ومائةٍ وستٍّ وخمسين معزة.

- هل تستطيع أن تثبت لي ذلك الآن؟

خاف إسحق. تسلّح بالشّجاعة وتوسّل إلى الباش آغا أن يقسم له بكتاب اللـه أن لا يلحق به أذًى إذا باح لهُ بسرهِّ. من على ظهر حصانه قبل الباش آغا العرض وطمأن الصّبيَّ. حينها أخرجَ إسحق نايهُ، جلس على صخرةٍ فوق مرتفعٍ يشرف على النّبع. من عادة نساء القرية

والأطراف المجاورة أن يستقين ماءً منعشًا من هنا. وبدأ يعزف على آلته لحنًا حزينًا.

من أصابعهِ وشفتيه خرجت موسيقى ساحرةٌ.

إن هي إلاّ لحظة حتى جاء القطيعُ: المعزات في المقدّمة واحدة إثر الأخرى ثمَّ الكباش وفي إثرهم النعاج. مرّت المواشي أمامه. كانت منتظمةً في صفوف مضبوطةٍ.

بعد ذلك قدمت النسوة والفتيات أفواجًا ومجموعاتٍ كالعادة عندما يسمعنَ غناء النّاي. كانت جميعهنَّ عارياتٍ. تجمّعن حول النّبع وأخذن في الغناء والرّقص.

ثمّ معًا كما في حالةٍ خطفٍ صوفيٍّ تقدَّمْنَ أمام جسدِ إسحق وهنَّ يبتهلن إلى اللـه.

ركعت النّسوة أمام إسحق. أمام عضوه التناسلي الصّغير. كنتُ أحضنُ إسحق بين ذراعيَّ، عندما قبّلني كان جسده يطلقُ حرارةً ذكوريةً وعطرًا عدنيًّا.

كنتُ أدركُ أنّني أشاركه في شيء ما... في هديّة تنام في أعماق هدأةِ أصولي.

سلّط الباش آغا نظرهُ عليَّ وقد تملّكه سُعارٌ وأمر حلاّقه أن يقطع أصابع الرّاعي. "هذا الطفل هو روحُ الفسوق نفسها. سيعلّم نساءنا ارتكاب الفاحشة. سيَجُرَّهنَّ جميعًا إلى نار جهنّم... نحو غضب اللـه وفي غياهب الجحيم".

قطعت الأصابعُ. هكذا انطفأ صوتُ النَّاي السّحري.

في الغد... وراء قطيعه دون ملكته الموسيقيّة ضيّع إسحق عشرة رؤوس ثمّ عشرة أخرى، ثم عشرة... ثم... وجاء اليوم الذي ذهب فيه القطيع... ضاعَ... تشتَّت. ولم يعد إسحق أبدًا، هو الآخر مثل قصّة... مثل قصته غاب في حطامِ الزّمن... في طيّات الحكاية وفي تضاريس دموع أمّه.

والنّبع أيضًا جفّ. هجر الحياةَ. بقيت النساء خلال أربعين يومًا يضربن صدورَهنَّ ويقطعنَّ شعورهُنَّ ولا ينقطع انتحابهن ليلًا. وعندما يحدثُ أن يفتحن أحيانًا أبوابهنَّ لرؤية السّماء كنَّ يرينه وهو ينفخ صدره ويغازل الصّبايا ويُراقبهُنَّ وقد تسمرنَّ بدورهنَّ وراء الشبابيك والستائر.

بأصابعها المرهفة وعينيها الهاربتين ونظرتها الحالمة الغائبة المنكسرة أمام عنقود العنب الذي تعرّى شيئًا فشيئًا من حباته. مثل امرأة المقبرة ضغطت على يدي في يدها.

صمتٌ.

"ومنذ قطعت أصابع إسحق قرّرنا الرّحيل... من مدينة إلى أخرى إلى اليوم الذي وقعت فيه بين أحضان أبيك".

ارتفعت تلاوة الآيات في الموسيقى المشحونة بها لغةُ القرآن المتناسقةُ هذا اليوم... هو كان ذات يوم.

الطّاقيّة

أنا ولدت من سفرٍ. هكذا وجدتُ نفسي على حافّة طريق بلا نهايةٍ يسلِّمني إلى انطلاق آخر... وهو بدوره يتركني لامتحان آخر. أنا هناك أو أنا هنا... ليس مهمًّا.

من إستانبول، من غرناطة أو من دمشق، قدمتْ أسرةٌ من أربعةِ أعضاء: مراهقٌ، أخته، الأمُّ وشيخ ذو لحية. هكذا سقطت من السماءِ في يومٍ يشبه باقي الأيّام.

بحضور هذه الأسرة تنفّست ريحٌ على هذا الحيّ الذي يسمّى الرّفراف. في هذه المدينة التي تدعى ريحانة أو ندرومة.

لم يكن الشيخ بلا شك غير الجدّ. يرتدي طاقية بيضاء من الحرير موشاة الحواشي بفرو أزرق، ويبقى طوال الوقت على عتبة الباب فوق كرسيّه المتحرّك - بل المجرور - في مكانه من طلوع الشمس حتى هبوط الظلام على كتفيه وداخل عينيْ الصّبيِّ الذي يرافقه طاردًا ببطءٍ بقيّة الضّوء الزعفرانيّ اللّون. وهكذا كان الصّبي المكلّف بجرّ الكرسيَّ يجد نفسه

مضطرًا إلى جرّه بصعوبةٍ على الأرض المتربة الملیئة بالحصى.

لقد كانَ محكومًا على الصّبي أن يبقى أمام جدّه ليديرَهُ صوب الشّمس في الشتاء والخريف وليدخله إلى ظلّ الحائط في الصّيف وليقدم له الماء ليشرب والإناء ليتبوّل. وبمرور الزّمن صار الصّبيُّ لا يراقب وضعيّة الشمس ولا ينتبه إلى الظّل أسفل الحائط ولكنّه كان يدفع الكرسيَّ آليًا.

قال أبي معلقًاّ أنَّ هذه العائِلَة يهوديّة إذا حكمنا عليها من طاقية الشيخ صاحب الكرسيِّ المتحرك ومن خلال طول أنف هذه المرأة الجميلة التي تتوارى وتحتجب من سرّ أو هاربة من...

يعتصر قلب أمّي وهي تراقب أبي حين يذكر أنف المرأة وشفتاه ترتعشان وترتعدان.

منذ اليوم الأوّل لاستقرارهم في حيّنا وضع والدي عينه - عين الذئب - على هذه المرأة الجميلة ذات الأنف الأخنس الطويل قليلًا.

الشيخ صاحب الكرسي المتحرك أو بالأحرى هذا الذي يبدو قائمًا على قيادة هذه الأسرة لم

يكن إلاّ رجلًا صغيرًا كتومًا مظلمًا.

يروي الناس أنه منظمٌ شهيرٌ لدورة عالميّة لسباق الحَلازين في الحيّ اليهوديّ الأمين في دمشق. كان يربّي فصيلةً من الحَلازين بـيعتْ بسـت قطـع Louis ذهبيـة للواحـد. كـانت لـهذا الحـدث الرّياضـي شـهرة واسـعة. مـن كـل صـوبٍ يـأتي آلاف الـهواة ومئـات المحترفين للمشاهدة والمشاركة، وفي نهاية الدّورة يعودون إلى بلدانهم مبتهجين وهم... يحملون في أمتعتهم هذه الدويبةَّ الصّغيرة المعروفة باسم البوتشالْ Boutchal.

هذه الدورة... هذا الحدث الفريدُ، كان يجري تحت موسيقى جوقةٍ. تتألّف من ثلاثمائة موسيقي وموسيقية يقودهم مايسترو شاذّ جنسيًا من أصل هندي. وقد قدّموا على مدى ثلاثة أيام عرضًا موسيقيًا لُحنَّ خصيصًا للمناسبة.

أهل الحيّ كانوا يقولون عنه إنه أصّم أبكم. ويقول بعضهم لقد بلع لسانه! في الحقيقة لم يكن هذا صحيحًا.

في عمق اللّيل... في هذه الليلة الصّيفية القائظة الجهنميّة غنّى هذا الرّجل. إذن كان لسانه في مكانه سليمًا... هذا ما أكّده سكّان الحيّ.

وقليلًا قليلًا تصاعد صوته العسليُّ في سماء هذه المدينة العتيقة. تدريجيًّا تجمّع أهل هذه المدينة واحدًا واحدًا ثم مجموعةً مجموعةً، رجالًا، أطفالًا، فتياتٍ بالغاتٍ، نساءً... لقد تجمهر الجميع أمام نوافذ حوشهِ الثّلاث المصبوغة بالأخضر.

في هذه اللّيلة كان نوح ثملًا. كان اسمه نوح. لقد كان على حافّة حلم جميلٍ أو كالملقى في جوفِ جرحٍ حيّ كان معلقًّا إلى صوته الذي صعد درجاتٍ السّماء أكثر فأكثر.

كـان يغنـي بلغـةٍ لـم يكـن يتحـدّثها ولا يعرفـها أحـدٌ فـي هـذه المـدينة المتقـهقرة المـرميّة المنسـيّة منـذ فجـر الأزمنـة بـين رائحـة المخطوطات والعطور الأنثويّة وخاصرتَي هذا الجبل الصّخريِّ الأجرد العاري المقشّر.

لقد نسي النّاس البحر منذ زمن طويل.

روى نوح للنّاس الذين صاروا يتحلقون حوله بأعدادٍ أكبر في سهرات تستمر إلى الفجر أنّ جدَّ جدَّ جدِّ جدهِ لأمّه سافر بحثًا عن رأس الكاهنة التي قطعت من قبل قائدٍ عربيٍّ يدعى حسّان النّعمان

"عقبة بن نافع الذي أسّس في هذه الفترة مدينة القيروان في 670م اغتيل ومن معه جميعًا جنوب بسكرة في الجزائر من طرف المتمرّدين البربر وقد دامت هذه المقاومة الشّرسة سبعين سنةً لم يكن الوجه الرّمزيُّ البطوليُّ خلالها غير امرأةٍ تدعى دمنية بنت ثابت... بربريّة يهوديّة من الأوراس تلقّب بالكاهنة وقد قضت على أربعين ألف مقاتل كانوا يشكلون جيش حسان بن النعمان قائد الحملة الخامسة الذي رجع في سنة 693م بجيش أقوى وأكثر عددًا ليقضي عليها ويقطع رأسها ويرسل به إلى دمشق".

منذ هذه اللّيلة وقعت أختي آية في حبّ هذا المراهق الذي كان هو الآخر يُغني ويصبُّ في الوقت نفسه لجدّه البوخا. وماء الحياة أو النبيذ الأحمر قدحًا تلو الآخر. نشوة إثر أخرى. وكانت أختي عندما تتكلّم أو تبتسم ترتسم فتلة الزّين

الغمَّازة على وجنتِها اليسرى وأخرى على ذقنها.

سقطت في هاويةٍ!... لكنها هاوية جنّة!...

الحمّى... الهذيان... نوعٌ من الجنون أو اللّعنة تملّكها. ومنذ هذه اللّيلة جنّت بهذا الشخص اللّغز ولم تعد تتوقف عن الهذيان وهي تردّد لازمة أغنية الغريب.

بعد ستّة أشهر حفظها كلّ سكان الحيّ عن ظهر قلب.

بسرعة ملأ الرجل ذو الكرسي المتحرّك الحيّ والمدينة بصمتهِ وفي نفس الوقت بأغنيته التي لا يكفّ عن ترديدها بمجرّد أن تحطَّ المساءات على كتفيه ويصعد الشراب إلى رأسه المدوّر كالبطيخة... الشراب الذي يعصره بنفسه... ماء الحياة.

لم تكن أختي سوى فتاة في عرس... من عرس... فتاة شابّة من لهبٍ... تلتهب... تلفّ نفسها دومًا في فساتين زاهية الألوان: أحمر، ورديّ، بنفسجيّ. منذ اليوم الذي رأت فيه الحفيد القَذِرَ السّوقيَّ لهذا الشيخ ذي الكرسيّ المتحرّك أصبحت تقضي وقتها...

أيامها أمام مرآة مكبّرة للصورة... بل صارت تسكن المرآة. كانت تتأمل نفسها... ترتدي الملابس وتغيرها... كان لها ذوق ونظر.

كان كلّ منهما يلتهم الآخر بعينه: أختي وهذا الفتى الذي يمسك الكرسيَّ المتحرّك لجدّه السّكير منذ عشرة فصول وربّما أكثر. كنت أشعر أنَّ عاصفةً بينها وبينه ستهبُّ.

كنت غيورًا!

كانت أختي تُزينُّ دائمًا منديلها بريشة طاووس لتبهرَ جاراتها... لتثيرهم. لقد كانت أختي... هي. لقد كانت آية!

كانت أختي تحبُّ الرّجال. عندما كانت تتحدّث عن النّساء أو إليهنَّ يسيطرُ عليها نوعٌ من الخوف... شيءٌ مثل الحصاةِ في حنجرتها... كانت تقول: "إنّهنَّ جميعًا يغرن مني!".

كانت تحلم بالسفر، بالذهاب إلى بلدٍ يشبه سريرًا أو حكايةً. صارت أختي منذ تلك اللّيلة تغنّي هي الأخرى مقلدةً صوت فيروز أو Reinette رينات الوهرانية. كنت أتأمّلها وهي تس إلى جهاز الراديو، جهاز صغير ببطاريّة مسطّحة شدّت إلى ظهره بخيط مطّاطيّ أبيض. وعلى

البطارية كانت مطبوعةً صورةٌ جميلةٌ لأسدٍ فاغر فمه بشكل دامٍ ومثير.

وكعادتها تحملهُ وتلصقهُ على أذنها وتترنحُّ برأسها وتحرّك ضفائرها السّوداء التي تظهر من تحت أطراف منديلها الحريريّ.

أتأمّلها طويلًا وأحدّق في أصابعها المرهفة البيضاء على البطّارية وكأن الأسد المخيف الجائع سيلتهمها.

وكنتُ أغارُ من هذا الفتى - حارس الكرسيّ المتحرّك، مفرغِ إناءِ جدّه من البولِ.

وأختي عندما تتكلم، عندما تبتسم ترتسم فتلة الزّين على وجنتها اليسرى وتظهر أخرى أصغر على الذّقن.

كان حاجِباهُ متوتّريْن يعتليان نظرةً من نارٍ مسلطةً على أختي التي بدورها لا تتردّدُ وهي على حافة ذاتها في أن ترميه من حين لآخر بوابلٍ من النّظرات المليئة بالإغراء والجمر وعيناها تتّقدان بقوةٍ بهيميّة.

"أنظر إلي ذاتي في مرآةِ عيني... مرآةٍ متعطشةٍ جائعةٍ مفترسةٍ... لا أشبه شيئًا. لا

أشبِهني أبدًا".

أنا أغار من هذا القذر الرّعامي السّوقيّ مفرغ إناء البول.

الغريب - المغرم بالبوخا - كان حلاقًاّ وطبيب أسنان وطبيب أعشاب وشاعرًا ودرويشًا معالجًا، كان هنا! الرّجل الذي يرى ما لا نرى الرّجل الذي يرى ما لا يُرى! الرّجل الّذي يبولُ في إناء الطّين.

في حالة انخطافِه الرّوحي كانت أصابعه الذّكيّة - كعادته اللّيليّة - تُسائل عودهُ الدّمشقي وتشعل السيجارة إثر الأخرى وتنساها في المنطقة النحاسيّة الصّفراء التي تُغسل وتمسح كلّ صباحٍ بقطعةٍ من ليمون وحفنة من النّخالة. ويحكي الشيخ صاحب إناء البول: "لا أحد منّا كان يُسمحُ له بركوب الخيل. أو المرور أمام أحدٍ من الأعيان الأتراك بقدمين تنتعلانِ حذاءً.

كان الباشوات يفرضون علينا زيًّا مميزاًّ: كان علينا أن نغطي رؤوسنا بلحافٍ أسود أو رماديّ وأن نلبس البرنوس على الجانب. كنّا أحفادًا من غرناطة".

"جيراننا أيضًا لم يكونوا سعداء. الواحدُ منهم يجد نفسه كلّ يومٍ مطالبًا بغرامةٍ: خمسين جلدة. كانوا يسمّون الفاسقات والفسّاق لقد كانوا أناسًا منخرطين في السّياسة والدّين".

الصّمت ثم من جديد: "على مدى سبعة عشر عامًا كان مفروضًا علينا أن نُبقي شبابيكنا الخشبيّة مغلقةً مسدلةً. نعيش باستمرار في ظلامٍ مطلق. كان ممنوعًا علينا أن نفتح نوافذنا. كنّا محرومين من نور الشّمس وصخبِ الشارع".

كان جالسًا على مقعدٍ خشبيّ صغير في حزنٍ وحنينٍ عالم رماديّ خريفيّ قاسٍ يفرغُ قلبه في كأسٍ من ماء الحياة وقد غَاصَ في الموسيقى ذات الإيقاع الأندلسي. كان يحكي لنا كيف تمكن في تلك الليلة من الفرار من مدينته: "لقد كان بحاراً من طرطوس ذاك الذي رتّب هروبي من الحيّ اليهوديّ الأمين بدمشق حيث كنّا نعيش مطوّقين كما في سجنٍ كبيرٍ، وكان هذا هو الشأن منذ مجيء الأتراك. أحبّ مدينتي... أعشَقُ أسواقها وجوامعها، فتياتها ومدارس الموسيقى بها... أعشَقُ حاناتها حيثُ لا يقدمُّ إلاَّ العرق ونبيذٌ

درزيّ حلو من نوعية رديئة.

في هذه المدينة عرفت المرأة، وعلى أسفل أسوارها وأبوابها المقدّسة قرأت الكتب المقدّسة، كلّ كتب اللـه!"

بائعُو الظّلاَل

في الصّباح ودِون علم الجميع أردت مغادرة هذه القرية العَتيقَة حيث قضَيتُ طفولتي وعشت مراهقتي. الجبل الصخريّ الذي ولدت عليه. كان الظَّلام لم يزل مخيِّمًا بعد. كنت أريدُ أن أتحاشى نظرة زوجة أبي. أنا أعلمُ أنَّ أختي - أو نصف أختي - سجينة في غرفتها. ليس لها الحقُّ في مغادرة غرفتها. هي ليست على علمٍ حتىّ بوفاة والدها.

في عمق اللّيل بينما كنتُ غارقًا في عطر سارة وفي زبد حكاياتها سمعتها تصرخُ وهي تذكر اسم أبي والله والأنبياء.

وأنا خارجٌ ألقيت نظرة صوب هذا الباب العجيب الموصَد، ولاحظتُ حذوة الحصان التي كانت مثبتةً بمسمارٍ على الخشب العتيق المتآكل الخرب، آية مسجونة هنا منذ فقدت عقلها وعذريتها: شرف العائلة. حدث هذا منذ سبعة عشر عامًا، ربما أكثر بقليل. أريدُ الهروبَ من هذا المنزل. أدركُ... بل أنا متأكدٌ من أنّ آية تتبعني من حجرتها المغلقة بالمفتاح. أحسّ

نظرتها النّاريّة على ظهري، أبحثُ عن مهرب...

أفقد خطواتي...

منذُ سبعة عشر عامًا لم تر آية سماء هذه المدينة زرقاء أو رمادية، أعرفُ أنَّ زوجة أبي - حسب أمنية أبي الأخيرة - لن تلبثَ طويلًا أن ترافقها إلى المقبرة لترى قبر أبي وتقيم الحداد عليه. آية ترجت سارة أن تسمح لها بأن ترش قبر أبي بدلو ماءٍ باردٍ.

طلبت ذلك في اليوم السابع من دفن أبي.

لقد أحسّت رائحتي دون شك - فوق قبر أبي - ورائحة جسد زوجة الحارس التي نسيت أن أطلب منها اسمها. آية ستمقتني، ستلعنني. لست إلا تيْسًا... رخوًا... نذلًا.

وهكذا تتوالى الأيّام. ومع مطلع كلّ يومٍ كنتُ أقولُ لنفسي: "ها هو مساءٌ آخرُ يغمضُ عينيه ويزرعُني على الدّرب الأعمى... الدّرب الوحيد. يخفق القلبُ ويهفو إلى نجمة أخرى... إلى طريق آخر... ويمضي يومٌ آخرُ كما وَهمٍ. أرفعُ بصري، لا أجدُ سوى سماءٍ تغمضُ عينيها لتنام أو لتموتَ... جغرافية زرقاء حيثُ تدفن ريح الأحلام. ومن فوق رأسي كانت النّجوم كما

الدّليل".

أتقدّم... إلى لا وِجهة.

كم هو رائعٌ أن نمارس الجنس مع امرأةٍ دون معرفة اسمها ولا لغتها!

لم تغادر آية هذه الغرفة منذ اليوم الذي فقدت فيه عذريتها: بل منذ العلامات الأولى لحملها الآثم.

سارة كما تفرض العادة كانت تراقب خرق دم حيض ابنتها على رأس الثمانية والعشرين يومًا... الثمانية والعشرين يومًا البيضاء. عندما علمت بحالة حملها قادتها إلى امرأةٍ عجوزٍ في حيٍّ آخر عتيقٍ لتقوم بإجراءات إجهاضها.

لقد تحدّث الناس ولم يتوّقفوا، عن الفقيه محند أوحمدان الذي يتهمونه بأنّه هو من اغتصب آية.

وحدها زوجة أبي كانت تعلم بأنني أنا الذي اغتصبتها وأنا من جعلها تحبل بجنين.

بعد حبسِ أختي غادر الفقيه الحيَّ تحتَ تهديد زوجة أبي سارة. في الحقيقة كانت سارة منذ

وقت طويل تبحث عن وسيلةٍ تطردُ بها الفقيه من القرية وليس بسبب ابنتها آية ولكن لإبعادهِ عن زهرة أمّي... غريمتها، وعن بناتها الست العانسات... أخواتي الست.

أهل القرية العتيقة - ريحانة أو ندرومة - هؤلاء أصحاب الألسنة الطويلة التي تمتدّ حتّى تصلَ السّاحة العامة كانوا يرّددون أنَّ أمّي كانت ترغب في تزويج ثلاثٍ من بناتها السّت العانسات إلى هذا الفقيه الأعمى الذي لم يكن لهُ رأسمال سوى "كتاب اللـه" محفوظ في قلبه ورأسه... هذا الفقيه الذي لم يكن يحبّ أن يشربَ سوى اللّبن "وهو قادرٌ على أن يحوّل الأنيسون في فمه إلى عسلٍ" وكان يرددُّ هذه الآراء لمن يرغبُ في ذلك: "إنَّ اللـه عليمٌ حكيم".

تعليم المرأة هو إفسادٌ للدّين.

إنَّ اللـه عليم حكيم.

"البنتُ حالما تصير ناضجةً للزّواج يجب تزويجها بأسرع ما يمكن لأنَّ الشيطان يترصّدها خلف كلّ دغلٍ أو منعطف، للتغلّب على الشّيطان ومجاهدة إغراءاته على المرأة أن تمرَّ من

الطفولة إلى وضعيّة الزّوجة والأمّ دون مرحلةٍ انتقاليّة. إنّ اللـه عليمٌ حكيم".

كان يترّشف شايهُ كوبًا بعد كوبٍ يسرّح به حلقه ويواصلُ خطابهُ بنبرة الحكيم العالمِ الوَرِعِ:

"... خلق اللـه المرأة لمتعة الرّجل، لتخدمه ولتنتج النّوع البشريّ... لا يمكن لها أن توجدَ إلاَّ لأجل الرّجل... وبه... إمّا أن تسعدَ وتمتّع فهي المدلّلة أو تُنفّر وتزعج فليس لها إلاَّ العبوديّة القاسية. يجبُ أن تكون جميلة حتى تكون محبوبةً، هذه هي السعادة الحقيقية للمرأة المسلمة.

إنّ اللـه عليمٌ حكيمٌ.

وإذا كانت المرأة كائنًا ناقصًا فإنَّ اللـه بحكمته قد قرّر كذلك. إنّ اللـه عليمٌ حكيمٌ.

إنّ المرأة حسب حديثٍ رواهُ البخاري مثل ضلع إذا أردتَ أنْ تقومه ينكسر وإذا أردت أن تستعمله فاستعمله باعوجاجهِ. إنَّ اللـه عليمٌ حكيمٌ.

سينالُ الرّجل ثواب أيوب إذا صبر على ما يكره

من زوجته، إنّها ريحانة الرّوح التي يحبّ شمّها وعطرها يريحه من متاعبه. المرأةُ المُطيعةُ شيءٌ غالٍ... حليةٌ ثمينةٌ.

إنّ اللـه عليمٌ حكيمٌ.

وتعليم كلام اللـه وكلامِ نبيّه هو حربٌ أشدُّ من كلّ الحروب الأخرى، إنّ اللـه عليمٌ حكيمٌ".

التَفتَ إلى أمّي بعينه المطفأَةِ، عين الثّعلب، عينه المطفأة التي لا تنام أبدًا... التفت ورائحة الأنثى هذه تغمرهُ وواصل حديثهُ بنبرةٍ أخرى: "وحتى الأنيسون - يؤكّد الفقيه لأمّي - هذا الشّراب الحرام يتحوّل عسلًا بمجرّد عبور عتبة بابِ فمه المقدّس". وحلفت أمي أنّها كانت تجدُ دائمًا في قاعِ كأس الفقيه سائلًا لزجًا حلوًا.

الفقيه... هذا الذي يحولُّ الأنيسون عسلًا كان يعشق أمّي زهرة. كان قلبه متعلقًا بها بينما كانت أمّي ترغب في ربطهِ ببناتها العانساتِ. زوجة أبي اشتمت رائحة هذا الحبّ بين أمي زهرة وهذا الفقيه الأعمى. لم تكن تغارُ منذ ذلك ولكنّها أرادتْ أن تنغّص عليها سعادتها مع هذا الأعمى. أخواتي هنَّ أيضًا يكرهن هذا الفقيه وقد ساعدنَ زوجة أبي سارة على

طردهِ من الحيّ وأقسمنَ أنهنَّ رأينه بعيونهن يربتُّ على جسد آية بطريقة مشبوهة.

وكما لو أنه في هذيانٍ مستمرٍ اندفعَ الفقيهُ في خُطبةٍ أخرى وأمّي بين يديه كانت تشبهُ تلميذة صغيرةً وهي تُصغي إليه باهتمام بالغ: "إنّ النّبي حسب روايات بعض مؤرّخي السّيرة، أمر بختان النساء عندما توجّه إلى خفيضة ممثلةٍ في شخص أمّ عطية أو أمّ حبيبة قائلًا: "الختان سنةٌ للرّجال ومكرمةٌ للبناتِ. اشملي ولا تنهكي فإنّ ذلك أشرق للوجه وأزهى للزوجّ"".

وفي رواية أخرى قالت أمّ عطيّة للنّبي بأنّها ستستمرُّ في ممارسة مهنتها كخاتنةٍ إلاَّ إذا كان ذلك محرمًاّ وطُلب منها أن تكفّ عن ذلك فأجابها محمّد بأن ذلك مباح وطلب منها أن تقترب منه حتى يعلّمها كيف تفعلُ وطلبَ منها إذا قصّت ألا تُنهكَ لأنَّ ذلك أشرقَ للوجه وأزهى للزّوج.

ابن تيمية (1263 - 1328) يشرح أنّ الختان يؤدي إلى اعتدال الرّغبة الجنسية لدى المرأة لأنّها إذا لم تختتن تصبحُ: خلفة خلفاء، أي شديدة الشهوة والميل للرّجال.

رغبتها الجنسيّة تجعل منها خطرًا على شرف العائلة.

الختانُ هو الوسيلة الوحيدة - حسب الأزهريين - للمحافظة على عفّة وشرف الفتيات.

متعفّنة في غرفتها كانت آية رمز العار - على مدى سبعة عشرَ عامًا وربّما أكثر لم تغادر آية الغرفة - الزنزانة إلاّ مرّتين: الأولى عندما ذهبت لتترحّم على قبر أخيها إسحق الذي لم يُعثَرْ على جثّته أبدًا. ووفق عادة اليهود والمسلمين فقد حفروا لهُ قبرًا سماهُّ سكّان ريحانة وندرومة: "قبر الغائب". قبر فارغ. والمرّة الثانية عندما ذهبت لتقفَ على قبرٍ أمي زهرة وتترحّم عليها. من هذا اليومِ خضبتْ لها سارة اليدين والقدمين بالحنّاء: كان ذلك كما عُرسْ! والمرّة الثالثة ستكون خلال ثلاثة أيّام لتقفَ على قبر أبي وتقرأ الفاتحة على رُوحهِ".

لم يكن لأحدٍ الحقُّ في زيارتها وهي في غرفتها مربوطة بسلسلة حديديّة إلى عمودٍ. أنا أيضًا لم يكن لي الحقّ في اجتياز عتبةِ بابها. يوجدُ مفتاحٌ واحدٌ تخفيهِ سارة في مكان سرّي: بين نهديها أو داخل...!! لستُ أدري.

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة! آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة! آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

آية مجنونة!

في أحد الأيّام فقدت آية عقلها تمامًا. رفضت أن تلبس أثوابها. لم تتناول إلا خبزًا يابسًا. حلقت شعرها عن آخره، لم تكن تطلبُ إلاَّ كتبًا لتقرأ وآلةً موسيقية تسمّى الإمزاد وطلبت حضوري جانبها ليلًا كما في أيّام الصّيف الطويلة.

كانت تحبّني، كنتُ أحبّها.

مرةًّ أخرى.

مرةًّ أخرى إضافيّة في ليلة شتائية باردة - كهذه اللّيالي الطويلة التي لا نهاية لها - وجدوا أختي ترتعدُ وترتجفُ وهي مازالت حيةًّ. كانت عاريةً تمامًا، زرقاء، شعرها مبلّل مبعثرٌ وهي قابعة في قاع خزانٍّ تجمّد ماؤهُ تقريبًا. كانت أختي ترتجف وعيناها مفتوحتانِ باتساعٍّ فريدٍ ونظرتها كعادتها ماكرةٌ خبيثةٌ ساحرةٌ. لم يكن في فمها إلاَّ اسمي واسم اللـه. لقد فقدت عقلها. وجاء عمّي لنجدتها وهو يحاول إخراجها

من هذا الماء الجامدِ. في البداية خافَ قليلًا. كان يغمغمُ وهو يتلو أدعيةً وآياتٍ قرآنية. لم أكن بعيدًا عنه. من عتبة الباب كنتُ أشاهدُ المشهدَ وأنا واقفٌ منتصبٌ مثل عمودٍ حديديّ بلا روح. في هذه اللّحظة لاحظت أنّ آية تملك أسنانًا بيضاء... بيضاء جدًّا رائعة التّصفيف والشكل. كانت أختي ترتجف وهي تدفع بقوّةٍ وعنفٍ وبحركةٍ مباغتةٍ يديْ عمّي الممدودتين إليها وترفضُ المنشفةَ الكبيرة التي كان عمّي يحاولُ أن يسترَ بها عُريها: ولكن دون جدوى. أدار عمّي وجههُ وهو يمدُّ يديه حتى لا يرى عُري ابنة أخِيهِ. أفراد العائلة الآخرين كانوا نائمين أو يتناومون! لقدْ أرادوا أنْ يدفنوا مرةً أخرى هذه الحادثة اللّيلية التي تتكررّ للمرّة السابعة منذ بداية الشتاء. منذ موتِ إسحق المأساوي... إسحق هذا الصّبي الجميل السوقيّ... غريمي الذي رماهُ متطرّفون في برمةِ الحمّام. من يومها فقدت أختي عقلها. لقد صارت مجنونةً.

لفظَ غريمي نفسه الأخير وهو يحترقُ حيًّا في حضور من كان في الحمّام وتحت نظر الحجّامين. لقد ماتَ مسلوقًا في هذا الماء الذي يغْلي. لم يستطع النّهوض أمام جميع

الذين لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئًا آخر غير التفرّج عليه وهو يحترق. في هذا اليوم بكيتُ هذا الفتى الراعمَّ... غريمي الذي سرق منيّ قلب أختي وعقلها.

الكلُّ كان يحاولُ إخفاءَ حكاية جنون أختي غير الشقيقة والكلُّ كان على علمٍ بطوافها اللّيلي هذا - في هذه اللّيلة لم يشأ عمّي هو أيضًا أن يوقظَ أحدًا. لقد كان منضبطًا كتومًا متحفظاّ في تصرّفاته. لقد كان أكبر من سنّه. عندما خرجت أختي آية من الخزانِّ طلبت فنجانًا من القهوة. من عمق غرفتها المظلمة الرّطبة كانت أختي تُراقبني وهي ما تزال ملفوفةً في فوطةٍ. كان شيءٌ ما يلتمع في نظرتها: شيءٌ ذئبيٌّ! ابتسمتْ لي، كنت أحبُّ أختي آية. وجدتُ أسنانها في هذه اللّحظة أشد بياضًا من ذي قبل. عاد عمّي إلى سريرهِ على أطراف أصابعهِ.

كان الجميع في هذا المنزل العائليّ الكبير مستيقظًا. كنتُ متيقنّاً من ذلك، لكن لا أحد كلّف نفسه مشقّة النّهوض ومغادرة أحلامه.

شربتْ دفعةً واحدةً فنجان القهوة الأوّل الممزوج بالفلفل الأسود. صببْتُ لها فنجانًا آخر

من القهوة السّوداء... السّوداء جدًّا ثمَّ آخر ثالثًا. بدأتْ في تجفيف شعرها ثم جسدها.

أنظر إليها. أخفضُ بصري.

أنظر إليها. أخفضُ بصَري.

أستَرِقُ إليها نظرةً خاطفةً ثمّ نظرة أطول. ثمّ يتَسَمَّرُ بصري عليها. لاحظتُ أنّني كنتُ أتأملُ جسدها. لها جسدٌ نحيفٌ. أشدُ نحافةً بالمقارنة مع الخطيئة. لم يكن بطنها ولا خصرها بحجم الإثم. نهدان منتصبان وابتسامة رائعة، هي تشبهُ طائرًا خرافيًّا من فصيلة نادرة. عُنقها مائلٌ قليلًا إلى اليمين شبيهٌ بجيدِ غزالةٍ هائمةٍ في صحراءَ قاسيةٍ. تأمّلتها.

مررتُّ المنشفة بين استدارتيْ مؤخرتها رائعتيْ التَّدوير ثمَّ على فرجها ذي الشعر الخفيف. اضطربتُ. حولتُّ بصري إلى أسفل ثُمّ رحت أنظر تارةً إلى الحائط المقابل وأخرى إلى ما بين قدميَّ. أدركُ الآن أنَّ الجميع يقبع في حفرةِ نومهِ اللّذيذ... في حديقةِ أحلامهِ وأوهامه.

تأملتُّها. تأملت حركاتها. كما عصفورٍ يتهيّأ للطّيران خطت خطوتين نحوي. كنت السّماء.

كنتُ سماءها. ثلاث خطواتٍ إلى الأمام واحتضنتني بين ذراعيها. شعرت بجسدها الذي مازال مبلولًا وهي في ارتعاداتها تغلي دافئةً حارقةً.

قالت لي: "ضمّني بذراعيك".

ثمّ همستْ في أذني: "قبِّلني".

في ظهري أحسست بنعومةٍ منعشةٍ شبيهةٍ بتلك التي تخرج من عَرَصَةَ باحة الرّخام التي في المسجد، بيت اللـه العظيم الرّحيم.

الغراب الأبيض

عندما حاولتُ أن أشرح لسارة زوجة أبي أنّ ما تقوم به غير إنساني وأنّ تصرّفها نحو أختي قاسٍ لم تزد على أن بصقتْ في وجهي وألقت عبارةً ناريّة: "من مصلحتك أن تخرس. كلّ هذا بسببك أنت. لقد حطّمت حياة أختك. ليس للفقيه في هذه القضيّة يدٌ".

لُذت بالصّمت وحاولت مغادرة المكان. ثعلب.

يحدثُ لها أن تصرخ باسمي عاليًا في اللّيل، وفي صمتٍ كانت زوجة أبي تلحقُ بها لتهدئتها وهي تقدّم لها كالعادة الغليون السّبسي محشوًّا بالحشيش وكوبًا من الشّاي أو فنجانًا من القهوة.

كان محظورًا على آية الاستحمام إلاّ مرةًّ في الشهر. وفي يوم استحمامها تساعد زوجةَ أبي عجوزٌ يهوديّة بدينةٌ عرجاء موشومة الذّراعين والعنق بالإضافة إلى أخواتي السّت المفتونات بفرج آية. لا ينظرن إلاّ إليه. هذا الفرج غير الحليق هو سبب سجنها مدّة سبعة عشر عامًا وربّما أطول قليلًا.

يغلين الماء في قدرٍ كبيرةٍ صدئةٍ من الصّفيح ويحرقن بعض البخور في الكانون. كانت العجوز تقبض حبلًا ومن حين لآخر توجهُّ ضرباتٍ إلى أختي.

لستُ أدري لماذا تؤكّد لي زوجة أبي - كما لتطمئنني - بأن الغرفة التي حبست فيها أختي مدّة سبعة عشر عامًا يعادُ طلاؤها كلّ سنة أي في ذكرى وفاة أخيها إسحق من كلّ عام. "هذا العام سنطليها بالأخضر".

أعلم أن أختي تحبّ الأخضر كما تعشق الأحمر. ثمّ أخذت زوجة أبي سارة تحدّثني عن قطّ... أو عن قطّة تشاركُ آية غرفتها.

"إنّها قطّة تبدأ بالبكاء عقبَ سماعها صوت المؤذن يدعو إلى الصلاةِّ". لم تستطع زوجة أبي أن تخفي سرّها. "يومًا بعد يومٍ أجد التشابه كبيرًا بين القطّ وأختك. آية تموء مثل هذا الحيوان الصّغير. ويتواصل الاثنان فيما بينهما بالعيون - وتغيّر أختك لونٍ عينيها باستمرارٍ. لقد صار أخضر مزرقًا مثل لون عين القطّ تمامًا". سَرت تحت جلدي قشعريرة. خفضت رأسي. أردت أن أغادر بسرعةٍ الدّائرة التي وضعت نفسي داخلها وأنا أصغي لهذيان

زوجة أبي. لم أعد أميّز منها غير فمها واختلاج شفتيها الحمراوتين الرّائعتي الشكل.

لست أدري لم أنا أفكر في لون فستان آية الذي كانت ترتديه في يوم "حماقتي". كان أزرق بلا أكمامٍ يحفُّ به شريطٌ من الدّانتيل الوردي وله خمسة أزرارٍ ملفوفةٍ بقماش أبيض. كنت أفكر وأتذكّر أغنيةً جميلةً للشيخ محمّد الغفور عنوانها مولات السّالف الطويل وأنا أتفحص ثغر زوجة أبي الذي لا يكفّ عن الارتعاش والاختلاج والحديث عن... لم أعد أدري.

انتبهت إلى توقّف زوجة أبي عن الكلام... بل عن تحريك شفتيها. ثمّ وجّهت لي الكلام: "لقد تعرّفت على موسيقى خطواتك. إنّ ذاكرتها قويّة".

ساد الصّمت في الغرفة الموصدة. اعتراني ما يشبه الخوف أو القلق أو شعورٌ شبيهٌ بهاجسٍ مخيفٍ... أرغب في مغادرة هذه الدّار، في الهروب من المكان: أن آخذ الدّرب الذي لا يفضي إلى وجهةٍ. كنت كحيوانٍ محاصرٍ وكانت زوجة أبي تتابع نظرتي، ضيقي وخوفي... أحسّت بالرّاحة. أعرف أنّها تفكر في حبسي

مع آية في هذه الغرفة. حبسي مدّة سبعة عشرَ عامًا... أكثر أو أقل قليلًا! زوجة أبي قادرة على ذلك، ولا أحد سيسأل عنّي. سيقول بعضهم إنّه في بيته... وسيقول آخرون إنّه في منزل ذويه. أتخيل نفسي هكذا: "السّلسلة حول الزّند أو حول العنق... جالسًا أو ممددًاً إلى جانب آية. في الوقت نفسه أشعر برغبةٍ تحلُّ في داخلي. نعومة منعشة.

فجأةً أطلقت آية صيحة: "هزار أو زُهَار... هزار أو زُهَار... هزار أو زوُهار سُ سْ سْ..."

اهتزّت الأرض تحت قدميّ. لم أستطع التّمييز بين صوتها والمواء. بنبرةٍ رزينةٍ بليدةٍ طلبت مني زوجة أبي بل أمرتني بالتوجّه إلى أختي لتحيّتها.

"لم أرها منذ سبعة عشر عامًا".

بلا تردّد، ومتبوعًا بخطوات زوجة أبي المضبوطة توجّهت إلى غرفة آية. شعرتُ أنّ سارة زوجة أبي تملّكتها غيرةٌ سوداء وهي تصوّب نظرةً ناريّة إلى ظهري.

أحدثَ الباب صريرًا: طقطق... كغ كغ ك... الغرفة كانت ضيّقة ومظلمةً جدًّا وليس فيها إلا خيطٌ

واهنٌ من الضوء ينبعث من فتحةٍ في أعلى الرّكن الأيمن. على الرّف وُضعت شمعةٌ في صحنٍ مكسورٍ ذابت دموعها فيه.

عندما صرّ الباب ماءَ القطّ وماءت أختي:

"آية تموء!"

تقهقرتْ بضع خطواتٍ إلى الخلف وهي تسترُ عينيها وقد أزعجهما ضوء النّهار القويّ. لم تتفاجأ. كأنها كانت تنتظرني.

مرَّتْ سبع عشْرَةَ سنة لم أرها فيها. نظرت إليّ. كانت تنقّل بصرها من أعلى رأسي إلى أسفل قدميّ ثم من الأسفل إلى الأعلى. لم أستطع أن أقاوم ووددتُ أن أغادر في الحين هذه الغرفة الغارقة في ظلال فوضويّة... ثمّ بهدوءٍ خفضت بصرها. أنا أيضًا تسمرت عيناي بين قدميّ. لاحظت أن قدميها في جوربين مثقوبين تطلّ منهما رؤوس أصابعها العشر. كان في يدها عبوة أحمر الشفاه.

وهي صغيرة كانت آية دومًا مفتونةً باللّواتي يضعن أحمر الشفاه. على الأرض كان كتابٌ ضخمٌ مرميًّا وقد تهرّأ وعلاه الوسخ. كانت هي نظيفة. استدرتُ ووقع نظري المضطرب المتوتّر

على زوجة أبي التي بدورها لم تكف عن التّحديق فيّ بشدّة. لستُ أدري لماذا أتذكر الآن الحكمة القائلة: "الشّرف مثل العذريّة، يحيا ويموت مرَّةً واحدة".

تأمّلتني آية، بصرها كان منصبًا على أسفل بطني. زوجة أبي فعلت مثلها. ذئبتان أمام حملٍ.

قدّمت لها سارة سيجارةً فجلست أختي على الحافّة. بحركة عفويّة من ذراعها المتحرّرة أخرجت علبة كبريتٍ كانت تخفيها تحت سريرٍ من قشّ. أشعلت السيجارة وأخذت نفسًا عميقًا ونفَثتِ الدّخان. ثم انتبهت إلى أنّها مازالت تحملُ بيدها الأخرى عبوة أحمر الشفاه دون غطاء فأخذت تلوّن شفتيها وهي ترسمُ ابتسامةً عريضةً على فمها الصّغير. لم تتغيّر. مازلت فاتنةً ساحرةً.

ابتسمت لي. لونُ أحمر شفاهها كان مائلًا إلى البنفسجي جميلًا دافئًا. تذكّرت الفقيه وقيلولة ذاك الصّيف الشعراني البعيد... انسحبت زوجة أبي. لعلّها ذهبت تبحثُ عن شيءٍ ما... لستُ أدري لعلّه سلسلة لتقيّد بها معصمي. مع ابتسامة

آية وجدت الغرفة واسعةً نظيفةً زاهيةً مضاءةً.

فجأةً في الغرفة الأخرى المقابلة - ارتفع صوت مقرئ القرآن المنكسر الحزين من جهاز الكاسيت أو من رأسي... لا أدري. مثل وردةٍ انغلقت أختي على نفسها. عادتْ إليّ صورةُ أبي - هي تسكنني. لم تنسَ آية سيجارتها: كانت تأخذ نفسًا إثر نفسٍ وتنظر إليها وهي تفنى محترقةً بين أصابعها المصفرّة ذات الأظافر المتّسخة. استمعنا معًا إلى الشريط، عن أيّ شريط أنا أتحدّث؟. سارة لم تعد بعد. لعلّها نسيتنا. هي تراقبنا من خلف الباب. رغبتُ في تقبيل أختي... في تقبيل قدميها... في أن أطلب منها أن تسامحني. ليست لي الشجاعة الكافية لذلك. أنا أراها في لباسها الذي كانت ترتديه في تلك القيلولة البعيدة. أنا أسمع شخير الفقيه وصوت الأزرار الخمسة وهي تفتح واحدًا بعد الآخر... أزرارِ فستانها. انتصف النهار.

أشمّ رائحة اللّبن التي شممتها في تلك القيلولة... البعيدة... لبن الفقيه.

تحررت من صورة أبي. هي أيضًا. المقرئ يصرخُ في الكاسيت. تذكّرت وجبة الفقيه: اللّبن

وكسرة الشّعير. كان يأكلُ وفمه مفتوح.
احتضنت آية بذراعيّ. ضممتها بقوةٍّ إلى صدري. أجلستها على ركبتيّ. كانت ترتعد... ريشة... عقبُ سيجارتها المحشوّة بالحشيش كان يحرق جلد إصبعيها. لم تنتبه إلى جلدها المحترق. كانت تدخّن أنفاسًا عميقةً كثيفةً والقطّ ينظر إلينا وهو يتابع دخان السيجارة. هو يحبّ ذلك. لاحظتُ أنّ آية مازالت تحتفظ بضفائرها. هي كما هي لكن مجمّعة فوق رأسها. وغير ممشوطة. مرّرت أصابعي الأربعة خلال شعرها. قفا جيدها الممدود كعنقِ غزالةِ الصّحراء بلونه الفضّي مازال على حاله.
استيقظ شيءٌ ما في داخلي. وجدتُ دخان الحشيش لذيذًا جذابًاّ. تأملت القطّ الذي تأملني بدوره.

لا أدري كيف ولا لماذا أقصّ لآية حكاية تلك المرأة التي تحوّلت إلى نجمةٍ:

"ذات مرةٍ كانت امرأة اسمها "زهراء" جميلة تثيرُ غيرةَ النّساء والنّجوم. بلغ جمالها حدّ أنها كانت جنّة خطايا، لقد كانت الحائط وظلّ الحائط، المِرآة والصّورة في المِرآة، لقد كانت الحصان وهرولة الحصان.

"ليحمِ اللـه النّساء".

بجمالـها الّذي لا يضـاهى وبنعومتـها وصـوتها الفريـد وحركاتـها المتناسـقة اسـتطاعت زهـراء جعـل مـلاكٍ مفتـونًا بـها. مجنـونًا بـها! بوضاءة وجهها السّماويّة... استطاعت أن تنزله من عليائه... من سمائه بعفّتها المغوية... بإغرائها السّامي... وكان ينزل كلّ مساءٍ ويقبّل قدميها ويتعطّر بأنفاسها... وفي أحضانها كانت تسكرُهُ بخمر النّخيل في أقداحٍ من ذهبٍ وتغنّي له. ذات مساءٍ لحظة سكرِهِ وثملِهِ استطاعت أن تنتزع منه الكلمة السّماويّة، الكلمة السّرية التي تسمح بالمعراج إلى السّموات.

تركت زهراء عشيقها منتشيًا بخمرته وطارت ترافقها موسيقى أساورها الذهبيّة والفضيّة الخالصة وهي ترنُّ. حلّقت طوال اللّيل وهي تجوبُ المجرّات البعيدة. لأنّ الملاك العاشق خان ربّه عندما باح بالكلمة السّحرية فقد مسخه كائنًا لعينًا. بقوّة السّماء انتزعت أجنحته وزالت زينته وفقد لسانه وصوته. عوقبَ بأن علّق من أشفاره في جُبّ مظلمٍ إلى الأبد. وحكم على زهراء الجميلة الفاتنة بالتّجوال إلى

الأبد في الفضاء، فتحوّلت إلى نجمةٍ تحملُ هذا الاسم".

كـانت آيــة تتـابع قـصّة النّجمـة وهـي تتـأملني. سـقطت دمعتـان مـن عينيـها المتعبتـينِ اللتـينِّ كـانتا تكلّمـاني بسـوادهماَ وبصـمتهما الصّاخب.

كانت آية في سموات الأوهام والخرافة ينبعثُ منها إغراء مثيرٌ. حاولتُ أن أقاوم، لست أدري لماذا أخذتُ أقصُّ عليها حكاية الصّيني وأنا أتجنّب نظرتها الملتهبة، عينيها المتّقدتين اللّتين تموءان:

"وليٌّ صالحٌ، تقيٌّ مؤمنٌ، رسولُ اللـه... جاء سيرًا على الأقدام. من بلاده الصين التي تقع في شرق المشرق حيث تشرق شمس اللـه كلّ صباح... لقد جاء ليموت في أرضِ الإسلام الطّاهرة.

لقد قال النبيّ محمد ﷺ: "أطلب العلم ولو في الصين". تجمّع السّكان حول الجامع الذي وُضعت فيه الجثّة قبل ختانها، وهم يصيحون بأصواتٍ عالية: "اللـه أكبر... اللـه أكبر". هكذا دفن عندنا في أرض الإسلام الطّاهرة الوليّ

الصّينيّ الحاج ستين بار الشّينوي، وهذا هو الاسم الذي أطلقه عليه وزارة الدفاع. إنّه الوليّ الصّالح الحاج ستّين بار الشّينوي.

ثمّ دفن الجثمان عقب صلاة المغرب وصلاة الجنازة. في الغد جاء السّكان من كلّ صوبٍ وأقاموا على قبره ضريحًا من الرّخام الخالص. وهكذا تحوّل قبر الحاج ستيّن بار الشّينوي مزارًا لشفاء الأمراض العقليّة ومداواة العجز الجنسي للذين يرغبون في ذلك من الذين يعانون العقمَ والعجزَ".

ثمّ غرقت في حكاية أخرى: قصّة الضّرائب التي كان المسلمون وأبناء عمومتهم اليهود يدفعونها: "الضّريبة على الختان"، على كلّ ذكرٍ مختون أن يدفع خمسة دورو سنويًّا قبل زواجه وعشرة دورو فورَ زواجهِ.

فجأةً انفجرت أختي ضاحكةً ضحكةَ مجنون. أنا أيضًا معها. بضحكتها الطفوليّة علّقت وهي تسحَقُ عقب سيجارتها بين إصبعيها المصفرّتين: "الضّريبة على الزّب".

فوقنا امتد السّطح، مكان لقاءاتنا اللّيلية قديمًا. هنا كنت أقابلُ آية.

"ليحم اللـه النّساء والجمال".

على الأسطح يتفاوض عشاقٌّ وعاشقات ريحانة - أو ندرومة: ليس مهمًا، حول اقتسام مملكة السّماء: يتبادلون القبلات واللّهيب ويقتسمون نجوم السّماء، ليست السّماء الممتدّة فوق الرؤوس كلّها إلاّ مملكة العشّاق.

على أصابع أيدينا الأربع الصّغيرة يدي ويد آية كنّا نعدُّ ونكرِّر عَدَّ كلّ نجوم السّماء: الصغيرة والكبيرة، القريبة والبعيدة، والشهب والنيازك أيضًا، وكنّا نقتسمها بالتّساوي. ثم ننام ونروحُ في أحلامنا اللّذيذة... في اللّاشيء... في أوهامنا الضّائعة في نجومنا أو وراء نجومنا.

قبلةٌ مرتبكةٌ... قبلةٌ مربكةٌ...

امرأةٌ لاحت هناك لحظةً لعيني عشيقها بخطوتها الرّاقصة ثمّ عادت إلى الظّل... إلى الاحتشام والكتمان والسّر... صلاة الظّل!... هكذا تولد قصص الحبّ معلقةًّ إلى النّوافذ... إلى الشبابيك المصبوغة بالأخضر... تنمو في مزهريات الرّياحين الموضوعة على حواف النّوافذ. رُحتُ أتأمل عينيْ آية.

الملح الأوّل

عندما حاولتُ أن أشرح لسارة زوجة أبي مرَّة أخرى أنّ ما تقوم به ليس إنسانيًّا وأنّ تصرّفها نحو أختي قاس جدًّا بصقتْ في وجهي ثلاث مراتٍ وهي تقذف عبارةً ناريةًّ عاصفةً: "يحسنُ بك أن تخرس، كلّ ما يحدث لهذه الكلبة التي هي أختك هو بسببك أنت... إنّها غلطتك، لقد حطّمت حياة أختك. ليس للفقيه ذنبٌ فيما حدثَ"

صمتُّ. دخلت داخل قوقعتي!

نظرتُ إلى نفسي في المِرآة. دخلت داخل المِرآة.

لقد كان يومًا شعرانيًّا جهنميًّا: وقت القيلولة. كانت الشمس تهبط ثقيلة كاويةً حِيطانَ الطّين. ينبغي معرفة التّنقل تحت هذه الشمس الحارقة وعبور الفضاءات المملوءة بالحصى والحجارة واجتياز هذه المدينة اللاهبة حتّى تتحسّس وتشعر بسعادة أن تجد نفسك فجأةً في برودة الظّل المنعشة: صلاة الظّل! دعاء الظّل!...

في الظّل، أسفل جدران الطين وتحت النوافذ، ثمَّة بعض الصّبايا يلعبن بأساورهن وخلاخلهنّ جاثياتٍ على رُكبهنَّ في التّراب والغبار وسط أسراب الذّباب. لقد كنَّ يسبحن في سموات الوهم والخُرافة.

كانت النّار تتنامى داخلي. نارٌ لا تشبه نارًا أخرى. كنتُ جالسًا بالقرب منها كالعادة على حصير الحلفاءِ.

ارتفعَ الصّمت بيننا. كنت أستنشقُهَا. رمقتني بنظرةٍ ثمّ بصوتٍ مضطربٍ نطقت باسمها في تجويف أذنها حتّى أتذوّق عسل اسمها! "آية... آية... آية..."

زملاؤنا في المدرسة القرآنية هذه كانوا قد خرجوا، لقد حلّت ساعة القيلولة. لقد غادر الجميعُ هذه القاعة الصّغيرة المنعشة قليلًا. ذات الجدران المبنيّة بالطّين.

في الحقيقة لم تكن مدرستنا القرآنية سوى مستودعٍ قديمٍ كان في السّابق يستعملُ لتخزين البطاطا والتّمر وصناديق الجراد وعلب السّمن الحيواني وصناديق سوداء مملوءة بالجذور التي كانت تجنى في سنوات الجفاف

لمواجهة المجاعة. الفقيه الشيخ محند أوحمدان معلّمنا الذي كان يعلّمنا القرآن كان أعمى وأصّم من أذنه اليمنى. كنّا مضطرين أن نعرضَ عليه ما نحفظه من آيات قرآنية في أذنه اليسرى.

في تلك الأمسية كان جالسًا على هيدورة، مستندًا إلى مخدّتيْنِ وكان يلتهم وجبته: خبزة الشعير ويشرب لبنه الحامض من قنينة طين أحمر مكسورة العُروة.

نظرت إليه ونظرتْ آية هي أيضًا. كان يأكلُ مثل خنزيرٍ وقد تساقطت قطراتٌ من السائل الأبيض على عباءته المصفرّة الملطخة كثيرًا. شممتُ عطر عرق آية... رائحة لا تشبه أي رائحة أخرى. لقد كانت فريدةً.

شمس. طقطقة.

مجــرّد صــفير خفــيف يربــك طــيور النوافــذ الظّريفـة هـذه... وهـؤلاء النّسـوة الصـامتات وهـنَّ يتوشـوشـن مثـل وادٍ تشـربه الرّمـال الوحشيّة. استدرتُ نحو آية، نظرتُ في أعماقِ عينيها. لأوّل مرةٍّ أدركت أنّ لعينيها ثلاثة ألوانٍ، الأسود، الأخضر، ومسحةٌ

من الأزرق. لم أعد أرى شيئًا. شعاع... صمت... وخفضت آية بصرها. كانت تراقبني من الأسفل.

كانت النّار تتأججُّ في داخلي.

قبّلتها. كنتُ أرتعشُ.

وبجرأةٍ قبلتني آية على خدّي الأيمن.

كان الفقيه يشرب سائله الحامض ويلتهمُ آخر لقمةٍ من خبزهِ اليابس وهو في طمأنينة تامّة. وبهدوءٍ انزلقت أصابعي في شعر آية الطويل. احمّر وجهها. أنزلت بصرها.

واحتسى الفقيه آخر الجرعات من لبنِه محدثًا صفيرًا. كان عمري اثنتي عشرة سنة... ربّما ثلاث عشرة. ليس هذا مهمًا. كانت آية أكبر منّي قليلًا. كانت تكبرني بثلاث سنواتٍ. اكتشفتُ لأوّل مرةٍّ أنَّ لآية نهدين مُنْتَصِبَينِ.... صدرٌ فاتنٌ... اكتشفت جسدها، نظرتُ إليه... كنت أتأمله... أقرأهُ... لم تظهر لي آية أيّ مقاومة. قميصها الموشّى بالأزهار، جعله التّعرّق يلتصق ببشرتها البيضاء التي يتخلّلها عددٌ من الشّامات. بلع الفقيه آخر جُرعةٍ من اللبن واستسلم إلى قيلولته.

تركتني آية أفعل ما أفعلُ دون أيّ رفض.

كنّا ثلاثةً في هذا المخزن الذي تحوّل إلى مدرسة قرآنية: آية وأنا والفقيه الذي استدار - الآن - على جنبهِ الأيمن. كان دائمًا يقول لنَا إنّ المسلم - المؤمن الحقّ - يجبُ أن ينامَ على جنبه الأيمن حتىّ لا يديرَ ظهره إلى الجنّة.

لقد ذهب جميع الأطفال الآخرين. في عجلةٍ غادر الجميع المدرسة القرآنية. اندلعت النّار في داخلي، عريتُّ آية، كنتُ أرتعِشُ، ولم تمانع. كانت هادئة... خفتُ من الفقيه الذي لم يلبثْ أن راح في شخيره المنتظم.

كان جسدها النّاعم يهتز تحت يدي أكثر فأكثر، ونهداها المغناجان ينتصبان تحت أصابعي الحريريّة التي تُهدهدهما برقةٍّ. شرعت آية في فكّ ملابسها ونزعها. استدار الفقيه محند أوحمدان على جنبه الأيسر. الآن أدار ظهره للجنّة.

في الخارج كانت الحرارة جهنميّة. كنّا في الأيام الصّيفية الأكثر حرارةً... الصّمايمْ، لا نسمعُ شيئًا. رجالُ الحيّ كعادتهم كانوا يغطّون في قيلولتهم: ساعة الشيطان! من بعيد سمع

كلبٌ ينبحُ. وهؤلاء النسوة - النسّوة المترقبات - ملفوفات في حكايتهن وفي انتظارهن يتتبّعن ظلال الدّوالي والحيطان وهي تستطيل تحت أقدامهن وأبصارهنّ.

نظرت إليَّ آية وقد ارتسمت ابتسامةٌ ساحرةٌ على شفتيها الممتلئتين. قبلتها على العنق ورحتُ أقبله وأقبّله... خفضتْ بصرِها فرُحتُ ألعق قفا جيدها. إنّها تشبهُ غزالةً. تمددّت بجسدها على حصير الحلفاء... تمطّت... ظبية!.

قفزتُ فوقها. انتصب عضوي التناسلي وهو يلامس بطنها الرّهيف. كانت ترتعشُ تحتي... كانت تلهثُ. خرج سائلٌ زيتيٌّ من ثغرها الصّغير. نظرت إلي: لم تكن نظرتها سوى كرةٍ من نارٍ. قبضت على كتفيها وأرغمتها على النّظر إليّ لمدةٍ أطول: أخذت لذّتي داخل هذه النّار. كنتُ أنظر إليّ في أعماق عينيها ثم طبعتُ قبلةً طويلةً هادئةً على الشفتين.

بينما كان الفقيه محند أوحمدان يشخرُ كنتُ أداعبها بالكلمات. دون ضجيج وبلغتها... لغة العصافير. كانت أصابعي الحريريّة تسائلُ جسدها وهو في موسيقاه وغنائه.

تأججت النّار في أعمق أعماقي لهبًا سحريًا. وضعتُ كفّ يدي اليمنى المرتعشة على فرجها.

تأججت النّار وتنامت أكثر.

أصــبح وجــه آيـة محـمَرًا أكثـر مـن ذي قبـل... ذهبـيًا. بحثـت عـن الكلمـات فلـم أجـد. هززتـها... خلخلتـها... هـي أيـضًا كـانت ملتـهبةً. العفريتة!

مثل نمرةٍ في حالة هيجانها الجنسيّ كانت تضغط بأسنانها البيضاء الرائعة التصفيف في فمها الصّغير وتحدثُ صريرًا. فجأةً قفزت فوقي مثل قطةٍّ. كانت عاريةً. عاريةً تمامًا. استسلمتُ لها. وولجتُها في هدوء. كانت على حافة دموعها. استسلمت لي دون أن تنطق بكلمةٍ... دون أيّ كلمة.

كان الفقيه يشخر بقوّة.

تدحرجنا بضع مرّات... بعض الاستعراض البهلواني! بعض نزواتنا، ووجدنا أنفسنا إلى جنب الفقيه، من جهة أذنه اليُمنى: الصّماء، وماذا يهم!.

تنهّدت تنهيدةً عميقةً طافحةً بالسّعادة والطّمأنينة وراحت تحدّثني وعيناها مغمضتان. كانت تهذي... ثمّ أخذت تستظهر بعض الآيات القرآنية.

كان الفقيه في قيلولته يشخر وقد أدار ظهرهُ للجنّة غارقًا في نومِ خنزيرٍ... في نومِ أولئك المحرومين من الجنّة والمغفرة تأملت وجه آية. كانت مسحة نورٍ سحريّة عجيبة تعلوه. قبّلتها. تركتني أديرها وأقلّبها وأعضّها وأعبث بأعضائها... كانت تبتسم.

نظرتُ إليها وهي في لهيبِ نشوتها: لقد كانت تعضّ وشاحها الحريريّ.

صرخة قصيرة.

فضضتُ بكارتها.

نطقتْ باسمي كأنّها تريد أن تتذوّق طعم إصبع العسل. واسْتَيْقَظ في عينيها عنقودٌ من النّجوم المهاجرة.

تأملتني من خلال عينيها نصف المغمضتين.

عدتُ إلى نفسي: أدركُ أنّني فعلتها.

ألقيتُ عليها نظرةً منزعجةً.

وتواجهت نظرتانا... الصمت.

لاحظت أن أشياء كثيرة كانت متراكمة في هذه الحجرة كيفما اتفق: كتب مصفرّة الأوراق، ثياب وسخة، ثلاثة أزواج من نعالٍ بالية وأشياء أخرى لا تصلح لشيء.

سمعتُ أحدهم يرفعُ ستارة محلّه وهي تبعثُ ضجيجًا مُصمًّا. إنّها نهاية وقت القيلولة.

حرّك الفقيه ذراعه. بسرعةٍ غادرنا الحجرة القرآنية... الكتّاب.

في المساء وكالعادة، كانت هذه الحجرة تستعمل كفضاءٍ لتعليم الموسيقى الأندلسيّة لبعض الأطفال المسلمين واليهود والرّوميين.

المحظية

مثل أبيه الذي كان هو الآخر مثل أبيه كان أبي متزوجًا من ثلاث زوجات.

إذا كان الزواج من سارة له حكايته: رهان بين رفاق، ومهرٌ قوامه زجاجة أنيسون وخاتم نحاسي فإن لأمي زهرة أيضًا قصتها: الرجل الذي ارتكب جريمة قتل عمي كان فقيرًا. لم يكن يملك ما يدفعه ثمنًا للدم المراق. ولكي يتحررِ من دية القتيل قدم لعائلة أبي فتاة ومبلغًا بسيطًا يعرف بـحق الكفن. هذه المرأة صارت فيما بعد أمي، وكانت قد قدمت كأمةٍ:

كانت تجيد عجن الخبز وفتل الكسكس وطَهْوَهُ والخياطة والنسيج وطحن الحَبِّ بطاحونة يدوية وتجيد مشط الصوف وغزلها.

امرأة أمةٌ زوجةٌ كهذه كانت كنزًا... تستيقظ مع الفجر ولا تنام إلا في وقت متأخر. كان عليها أن تعيش مع أبي حتى يأتي الموت ليخلصها.

يقول مثل عربي: "تبدال السروج راحة".

في هذه الغرفة كانت أمي وزوجة أبي منذ

سبعة عشر عامًا تنصبان النول. منذ خطيئتي.. تلك التي ارتكبتها أثناء القيلولة في ذلك الكُتَّابِ اللعين، منذ ذلك الحين لم تَنْصِبِ الغريمتان نولهما. تذكرت كل شيء... حدث البارحة. كان اليوم هو الجمعة. وقبل أن يخرج أبي أكد لزوجتيه أن اليوم كان الجمعة.

إذن اليوم كان الجمعة.

إذن اليوم لم يكن لا الخميس ولا الإثنين.

في ذلك الصباح كان على المرأتين أمي زهرة وزوجة أبي سارة أن ينصبا النول.

ردد أبي كما كان يفعل دوما عقب نصب النول أو طيه "إن شريعة اللـه والنبي تحرم قطعًا أن ينصب النول يوم الإثنين أو يوم الخميس وخلال الساعات التي تلي صلاة المغرب" أخرج سفره ذا الأوراق الصفراء وبدأ يقرأ عليهما بصوت عال أشياء عن تاريخ الصوف وعن أسفار الجن عبر خيوط الصوف وعن أفضل أنواع الصوف السبعة وعن الأنبياء والصوف... كان عمري تسع سنين.

مندهشًا من على عتبة الباب كنت أحدق في رمي خيوط الكباب الثلاث في اهتزازاتها، في حركة ذهابها ومجيئها بين المرأتين. ثلاث كباب

بألوان مختلفة: الأبيض والأحمر والأسود. كنت أتأمل مطولًا الكباب وهي ترتعد وترجف وتصير مع مرور الوقت أصغر فأصغر. وشيئًا فشيئًا تتلاشى كرات الخيط الثلاث وتموت. كنت أراقب موتها... انطفاءها على مقربة من ذلك.
وبالتناوب كانت المرأتان تعوضان الكرات الثلاث المتلاشية بأخرى أضخم.

لم يكن بمقدوري أن أفهم كيف كانت أمي وزوجة أبي صاحبة الأنف الأخنس جَالِسَتيْن جنبا إلى جنب غارقَتيْن في صمتهما وفي نظراتهما اللاهبة المتقدة - رغم الحقد والغيرة السوداء التي كانت تأكل قلب الواحدة منهما كما الأخرى.

كانتا تقومان في وقت واحد وترسمان خطًا يفصل النولين بالدقيق الأبيض كالثلج على أرضية الحجرة المبلطة بمربعات الجرانيت والتي كانت طويلة ضيقة بلا نوافذ. كان يحدث هذا بعد يوم تقضيانه جالستين خلف خيوط نوليهما في هدوء دون أن تتحادثا، ودون أن تنبس إحداهما بكلمة. إلى جانب هذا الخط الذي يفصل النولين كانت كل واحدة تضع مرآة ممسوحة نظيفة في إطار بلاستيكي أخضر

اللون. كانتا تتبادلان نظرًا مشحونًا مشفرًا وتغمغم كل واحدة منهما في آن واحد بعض الأدعية بالعربية أو بالعبرية: "باسمك يا اللـه

ارحمني بسعتك

هذه حدودك

وهذه حدودي

هي ذي مرآتك

وهذه مرآتي."

كانت سارة وزهرة تبصقان سبع مرات على صدريهما.

وكنت أنا أتأمل. أتابع حركات الغريمتين... الثعبانين... اللتين تقتسمان الرجل نفسه: أبي. كانتا تقتسمان السرير نفسه أيضًا. لم تعودا تتبادلان الكلام وفي الوقت نفسه كانتا تتبادلان إشارات لأحاديث ليلية بمجرد أن تكونا على السرير الكبير المُعدّ لثلاثة أشخاص. هذا الصمت، بل هذه الحرب مستمرة منذ ولادة ذكر سارة الأول: أخي غير الشقيق: إسحق، الذي لم يفارق الوَدَع الأسود المبارك عنقه الصغير.

كنت عندما أراقبهما وهما خلف النول أشعر بخوف مبهم... بشعور لا أعرف كنهه... ويؤلمني بطني.

كنت أرغب في أن أبول.

كانت تنتابني رغبة في التقيُّؤ.

كنت أتحاشى نظر أمي كما نظر زوجة أبي التي لم تكن إلا طفلة أصغر سنًا من أمي وأجمل منها. لقد كان أبي على حق: زوجة أبي سارة كانت تملك أنفًا جميلًا. الأنف اليهودي. وأنا من على عتبة الباب كنت أتأملهما. فجأة لسعت زوجة أبي إصبعها بإبرتها ورفعت إلى شفتيها قطرة الدم الحمراء الدافئة السائلة لحينها.

سمرت نظرتها علي كما لو كنت أنا الإبرة.

دون شعور وجدتني أمص بنصري.

في نهاية هذا اليوم الطويل الذي قضياه في الصمت والنسيج قشَّرتا برتقالتين وأكلتاهما ورمتا القشور بعيدًا وهما تبصقان البذور في كفيهما بصمت.

نهضت أمي وزوجة أبي لإزالة خط الدقيق الذي هاجمه جيش من النمل الأحمر: نمل النصارى، أثرُ حدود الدقيق بقي على أرضية الغرفة.

دون علم الأخرى علقت أمي مرآتها على نُولِها بكيفية تجعلها موجهة نحو سارة، فعلت الأخرى بمرآتها الممسوحة جيدًا نفس الشيء. بقيت المِرآتان متواجهتين طيلة الأيام الثلاثة أو الأربعة التي استغرقها النسيج.

كانت الحائكتان زوجتا أبي تحاولان طرد النحس بحضور المِرآتين ذواتي الإطارين الأخضرين الداكنين. وإذا تخطت عين سوء إحداهما الحدود - أي: خط الدقيق المرسوم - لتصيب الأخرى فستدفعهما المرآة.

كنت دومًا أخاف من والدتي لأنها كثيرًا ما تقرص مؤخرتي. وفخذيَّ وخدَّيَّ؛ وكانت على جسدي بقع زرقاء باستمرار. وفي المساء ما إن يصل صوت نحنحة أبي التي يطلقها على عتبة الباب لتعلن عَوْدَتهُ حتى تنهض النسَّاجتَان... زوجتا أبي وتتركان العمل لتعاوداه في الغد. كل منهما تضع قطعة سكر وحفنة دقيق وسبع حبات من الفول اليابس وريشة دجاج بيضاء

قرب خشبة نولها.

بعين مملوءة رغبة كان أبي يتابع حركات زوجتيه وهما تفكان وتسحبان عمودي تثبيت النول الخشبيين وترشان بعض قطرات الماء مكان غرسهما.

من على سريره كان أبي يطلق أدعيته: "بمعونة اللـه ستكون السماء رحيمة هذا العام وسينزل الغيث بغزارة وستزهر الأرض و..."

كانت أمي تكرر لي ولا تتوقف، دون أن أطلب منها ذلك:

"الدقيق والسكر وحبات الفول السبع هي عشاء النول أما ريشة الدجاج البيضاء فحتى لا يكون شغل النسيج ثقيلًا ولا متعبًا."

كنت أبحث عن الفم الذي بواسطته سيأكل النول دقيقه وسكره لكن دون جدوى. وفي الليل كنت أصيخ لعلّي أسمع النول في الظلمة يقضم بين أسنانه السكر وحبات الفول.

لا شيء.

حتى الأمهات يكذبن علينا!

لأول مرة لاحظت أن أصابع قدمي أبي كانت طويلة يعلوها شعر أسود فاحم.. لقد كان متمددًا على سريره وعيناه تحدقان في سقف حجرة النوم هذه، التي تستعمل أيضًا لنصب النولين، والتي كانت زواياها قد غزتها العناكب الكبيرة ومدت نسيجها عليها. كان أبي يراقب زوجتيه. يتمتم ببعض الآيات القرآنية أو بعض أبيات من شعر الغزل لأبي نواس أو بشار بن برد.

كانتا تلحقان به في صمت... كما قطتين: زهرة وسارة. سارة وزهرة!

في دعة واطمئنان كانت أمي تحل حزامها وهو عبارة عن حبل من الحرير الأصفر وكانت زوجة أبي تقوم بالشيء نفسه.. بالحركة نفسها.. حزامها كان وردي اللون... زوجة أبي ذات الأنف الأخنس قليلا؛ الأنف اليهودي.

كان أبي يأخذ مكانه وسط السرير ونظرته الملتهبة تارة على زهرة وتارة على سارة أو على أنفها الجميل...

كانت الأولى زهرة تتمدد إلى جانبه الأيمن

وتتمدد الثانية إلى الأيسر. فيطوي هو بحركة السيد كتابه المقدس: كتاب اللـه أو ديوان شعر الغزل. لايهم! تنفخ تلك، التي على يمينه - على الشمعة المثبتة على منضدة مستديرة بثلاثة أرجل. تتلاشى الشعلة الصغيرة.. تضيع.. تختفي.. وتروح الغرفة في ظلام الصمت.
ويسود الصمت من جديد ببعض الصلوات والأدعية والتمتمات الغامضة، ثم تنهض سارة وتشعل عود بخور، ثم لا يعود يسمع غير صرير السرير المصنوع من الحديد والخشب العتيق.. سرير الثلاثة.. ثم تنهدات سارة وشهقاتها، عندما يكتمل احتراق عود البخور تنهض أمي وتوقد بدورها عود بخور آخر. رائحة أخرى تعم الغرفة ثم أسمع تغنجات أمي. وعندما يأتي العود الثاني على نهاية احتراقه تستسلم المرأتان إلى النوم العادل. ولأن أبي كان عادلًا ومؤمنًا حقًا، تقيًا، فإنه كان يقسم وقت لذته وجماعه بين زوجة أبي وأمي. زوجتيه بالتساوي ويقيس ذلك بعودي بخور بطول واحد.

وكان أبي يقول لزوجتيه: "إن وقت الجماع والمضاجعة يُحَس، ويجب أن نحس هذا الوقت. إنه وقت مبارك.. وقت جنة اللـه!" ولم يكن

النول يقضم سكره.

مسكونًا بأختي آية - في ظلمة القبور هذه - كنت أمارس العادة السرية. كانت ملامح وجهها الملائكي تسكنني وكنت أفكر في ثغرها.. في طعم ريقها العسلي وفي صوت المؤذن اللذيذ وهو يدعو المؤمنين إلى صلاة الفجر. كان عمري إحدى عشرة سنة! استيقظت. استيقظ فـيَّ الثعلب.

نفضت الغبار عن سفر ضخم من ثلاثة أجزاء في السيرة حياة النبي، كان موضوعًا فوق خزانة. كنت دوما أخاف من الكتب الضخمة المجلدة.

ألقيت على نفسي نظرة في مرآة عمياء مشقوقة. كان على عتبة الباب سطل وقميص مهترئ من الصوف يستعمل كمنشفة وإناء من الطين للوضوء كان كل ذلك في مكانه..

كانت الستائر الخشبية مسدلة وزجاج اثنتين من النوافذ الأربع والعشرين مكسورًا.. وهدهدني نسيم منعش. في الخارج كان الفجر يجر خطاه.

سمعت هديل بعض الحمائم على حافة

السقف وشعرت بحدوث انفجار داخل رأسي. أخذت جرعة ماء باردة ومسحت شفتي بكم قميصي.

لست أدري كيف دفعت الباب الذي انفتح وهو يحدث صريرًا. لاحظت أن جهاز الراديو كان خلف الباب. كان مطفأ أو معطلًا.

استدرت.. وجدتني في أحضان آية. لقد كانت تقضم في سرية وبشراهة قطعة السكر التي تركتها زهرة وسارة أسفل عمود النول.

كنت أعلم أنها هنا. وللمرة الثانية في هذا المساء بكيت إسحق الرَّاعِمَ... أخي غير الشقيق الذي اغتالته أمي زهرة.

نسوة القيلولة

غادرت الدار العائلية الكبيرة. الصخرة التي ولدت عليها. نظرت إلي سارة. كانت آية متوترة منفعلة متشنجة حبيسة في غرفتها الموصدة بالقفل لا تكف عن المواء والصراخ بصوت عال: هزار... زُهَارْرْرْرْرْ. تخيلت جسدها الرهيف المرتجف المتصبب عرقًا، العابق برائحة القيلولة والحشيش.

تحاشيت الالتفاف. أنا متأكد من أن سارة تَبْكِيني مثل طفلة كما مَيْتٍ. تبعتني من وراء زجاج النافذة أو من على العتبة بعينيها الدامعتين. وسط البكاء ابتعدت كما الممدد على ألواح تابوت. كنت أمشي في موكبي الجنائزي... أتقدم إلى دفني. أجر خطاي الثقيلة تحت هذه الشمس الحارقة. كنت أحس عطر سارة وتمتمات آية. أزقة وشوارع ريحانة أو ندرومة: ليس مهمًا، كانت في عيني ضيقة جدًا. أنا أختنق. وبدا لي ظلي الذي كان يسير بجانبي غريبًا مشوهًا. واكتشفت لأول مرة الشبه الكبير بين ظلي والموت: الموت ملتصق بجلدي.

الوقت منتصف النهار تقريبًا. ربما تجاوز ذلك بقليل. الشبابيك الخشبية المطلية بالأخضر مفتوحة؛ بعض الأبواب أيضًا. روائح القدور التي تغلي فوق النار تصل إلى الأزقة المبلطة بالحجارة.. إلى أنفي. ابتعدت. شعرت بحزن عميق وبرغبة في البكاء بين أحضان من في وسعه الإصغاء إلى بكائي.

الإصغاء إلى الدموع!

علـى جـانبي الزقـاق الـذي أقطعـه نسـاء جمـيلات ملفوفـات فـي المحـوك الأبـيض. واحـدة بعـد الأخـرى يظـهرن مـن خلـف أبوابـهن ويخرجن كما لغز عند عبوري من دوائر البيوت لاستنشاق هواء منتصف النهار المنعش.. لرؤية السماء.

يطلقن ضحكات ويتبادلن أحاديث هامسة وحركات.

كنت أتقدم عبر الأزقة تحت نظر النسوة. ابتعدت وأنا افكر في آية وفي مواعيدنا على سطح الدار العائلية الكبيرة للافتراء على النجوم.. لنكذب على أنفسنا.. لنتمتم بالصمت، هذا الذي هو أكبر وأقوى وأعلى من اللغة. لغة

العصافير!

لزهرة الانتظار عطرها ولها سماؤها.

امرأة على نافذتها، تنظر إلى السماء. ترسم حلمًا أو أميرًا: من الذي ولد أولًا: السماء أم النافذة؟

قلت لسارة مغمغمًا وأنا أتامل السماء فوق ريحانة أو ندرومة: لا يهم، في هذا المساء: "ليست هناك سماء بلا نوافذ. في البدء كانت المرأة. ثم رفعت هذه الأخيرة السماء فوق عيونها. وعندما وجدت المرأة أن السماء جميلة تملكتها الغيرة وأحالتها نافذة. وجدت سارة أفكاري مجنونة قليلًا.. عبثية إلى حد ما.

كنت أتقدم وأنا أرى الحدوات المثبتة على خشب الأبواب العتيق.. هي توحي لي بأشياء كثيرة: ليست حذْوة الحصان إلا رمزًا لكرم الضيافة.. إشارة استقبال للمسافرين أولئك الذين يسمون أبناء السبيل.

ويمتد الأفق الذي يحتفظ بالضوء وضحكات النساء الفجائية المجنونة.

أعشق أنين الستائر والشبابيك وهي تتحرك

على دواليبها ومصاريعها الصدئة عندما تفتح وعندما تغلق.

بإيقاع موسيقي كانت خطوات الأقدام الصغيرة الغارقة في الأحذية ذات الكعب الحاد تجتاز الأزقة. الرؤوس منحنية تحت الدوالي لتجنب الأغصان والعناقيد التي تعترض الوجه.

وينبعث عطر قوي من مربعات التربة المبلولة في الجنائن.

ألوان النهار تتبخَّر.

أفكر في سارة وهي في سمائها مثل نورسة بيضاء مترددة قبل أن تحبسني طوال حياتي في هذه الغرفة الرطبة إلى جانب آية.

أتقدم عبر هذا الزقاق الذي ينحدر صوب الساحة العمومية التي تدعى ساحة التربية، رفعت بصري لأرى امرأة في نافذتها تنضح بالأحلام وهي تحاول أن تطرد ضباب الوحدة وظل الظل وتفكر في هذه الخرافة حيث يدوم لسنوات البحث عن المفتاحِ الذي يفتح القصر المرغوب: لم تعد تعرف لا تَمْتمة اسم عشيقها ولا إسكات عاصفة الرجل.

أتقدم. ثلاث فتيات يعزفن على العود ورابعة تهدهد طفلها قطعت غناءها عند مروري.

أنا الآن أدرك أن هذه المدينة ريحانة أو ندرومة. لا يهم، مسقط رأسي دون عطور الظلال وهمس النساء وثرثرتهن عبر النوافذ ليست سوى مرآة باردة عمياء.. دخان خفيف يتصاعد من ركام رماد.

لماذا كانوا يسمَّون أهل العطر..؟ سكان هذه المدينة العتيقة المنسية في أسفل هذا المنخفض السحيق الذين هم في غالبيتهم عورٌ أو عازفون موسيقيون أو شاذون جنسيًا.

كانت هناك مدينة فريدة لا تضاهيها أخرى. يُروى هذا منذ فجر الأزمنة، وتتناقله أجيال بعد أجيال وهو مكتوب منسوخ أسود على أبيض من طرف نُساخ وخطاطين شهيرين موثوقين.. أولئك الذين كانوا يكتبون الأسفار الضخمة، كتبًا من النثر وأخرى من الشعر كتبت بالعربية: لغة اللـه والقرآن والجنة. وكان الرجال في هذه المدينة المسماة ريحانة أو ندرومة لا يجامعون زوجاتهم أو خليلاتهم إلا مرة واحدة في الأسبوع ليلة الجمعة للمسلمين وليلة السبت لأبناء عمومتهم اليهود.

ما كان فريدًا ومدهشًا في هذه المدينة، ريحانة، هو أن الجماع لم يكن يمارس إلا وسط روائح دخان وأبخرة أعواد البخور والمسك.

كان الرجال يقيسون ويعدون زمن لذتهم الجنسية بمدة حياة الأعواد المعطرة المحترقة عند أرجل أسرة العشاق أو على حواف النوافذ أو في أيدي الزنجيات الصغيرات اللواتي يُشترين خصيصًا لحمل الأعواد ساعة الجماع، من السودان؛ من النيجر؛ من المغرب؛ من القاهرة أو من السنغال. وقت الجنس أو بالأحرى لحظاته كانت قِسمًا مقتطعًا من الوقت الإلهيّ... وقت جنة اللـه، هذا ما كان يؤكده العلماء الأكثر تنورًا لهذه المدينة: ريحانة.

ولأن الجميع في هذه المدينة ريحانة كان يمارس الجماع وسط عطر الأعواد فقد ازدهرت حول المدينة تجارة لذلك، وأقيمت سوق لتجارة الأعواد المعطرة.

كان التجار يفدون من الهند، من أندونيسيا؛ من الصومال؛ من سمرقند، ليستقروا نهائيًا في هذه المدينة. بمرور الوقت استقرت جالية هندية وآسيوية كبيرة في حي مستقل. وهكذا أصدر شيخ المدينة - بعد استشارة العلماء

المسلمين واليهود - قانونًا بأن تكون اللغة الهندية اللغة الرسمية الثانية في هذا الحي الذي يسمى: جانيتو. أهل ريحانة أو ندرومة. لا يهم، لم يكن يضايقهم أن يقوموا بما كان أجدادهم يقومون به: إقامة المباني دون التفكير في المعابر والأزقة، الإنجاب دون كلفة: تكفي سهرة لمقرئي القرآن؛ السفر دون تبين الدرب أو احتساب الخطو. لقد كانوا هكذا.. أهل ريحانة هؤلاء. في المدينة وضواحيها ازدهرت تجارة العطور والأزهار والفراشات وازدهرت تجارة أخرى هي تجارة الخشب. ثم وفدت موجة من عمال الغابات قدمت من الأراضي المنخفضة لتنمية غرس وزرع نوع من الأشجار يستعمل خشب أغصانها وجذوعها في إنتاج أعواد البخور.

ثم وفدت موجة بشرية ثالثة من بغداد ثم أخرى من إصفهان للتنافس على تجارة أوتار العيدان. وشهدت المدينة ميلاد زقاق حـــيث تجـــار التجزئـــة - مســلمين ويـهودًا - لا يبـيعون إلا الخـردة والمسـامير القـديمة. وامتـلأت المـدينة بـالمغنين والمغنيـات والموسيقيين والموسيقيات من المسلمين واليهود.

من مملكة السماء، النافذة، كنا نسمع في النهار كما في الليل أغاني رينات الوهرانية؛ الشيخ ريمون؛ الشيخ ابن سوسان؛ الشيخ غفور والشيخة الريميتي. وتحت ظلال الحيطان كان الناس يستهلكون النبيذ؛ الشاي الأخضر والأسود؛ الأنيسون والبوخا.. وكثيرًا من الحكايات! حكايات جميلة: حكايات المسلمين واليهود: الناس المختتنِين. وحكايات غير المختتنِين آكلي الخنازير: الروامه، نساء متبرجات في حليهن عقود اللويزات حول الجيد ورنين الخلاخل التي يخلخلها الخطو. في ظلمة مشعة لم يعدن يتحدثن إلا عن الغناء، نسي الجميع عقيدته. وهكذا عوضت الموسيقى عن العقيدة، بتناسي وازدهار وتطور زراعة هذه الأشجار وتجارتها أهمل سكان ريحانة شغل الصوف: عمل النسيج على النول.

في البداية أخذت مومسات كثيرات بوله وجرأة يتعلّمن هذه اللغة الجميلة المشبعة بالموسيقى والرقص وصوفية الجسد المقدسة. ثم مع مرور الزمن وجد الرجال أنفسهم - دون أن يشعروا - مضطرين إلى اتباع النساء اللواتي لم يعدن يتكلمن إلا هذه اللغة.. لغة العصافير الهندية، وبدأوا

ينسون لغة الل ـه.. وعلى رِقاق طويلة من جلود الماعز والبقر علقت على أبواب المدينة السبعة كتب بالعربية والهندية التي تقرَّرَ أن تكون لغة رسمية في حي جانيتو ما يلي:

"يمنع منعًا باتًا على أي كان أن يجامع شريكته ويمارس الجنس معها وهو يحادثها باللغة العربية التي ليست إلا لغة الل ـه. لغة طاهرة مقدسة مخصصة للاستعمال الديني من قبل المؤمنين في مثواهم الخالد.. في جنة العالم الآخر... في الما بعد. يمنع أن تدنس وتلوث وتنجس ألفاظ هذه اللغة التي كان النبي - عليه وعلى أصحابه السلام - يتحدث بها في مشهقات غنج اللذات الجسدية الشهوانية."

وخوفًا من أن تنسى لغة القرآن طلب من الرجال كما النساء مسلمين ويهودًا أن يرتلوا أو يقرؤوا بعض الآيات القرآنية أو بعض قصائد الشعر بالعربية قبل أن يوقدوا أعواد البخور، تمهيدًا لمباشرة الشريك. هذا ما جعل أهل مدينة ريحانة لا ينسون لغتهم ولا عقائدهم.

أتقدم عبر الأزقة الضيقة ذات المسارب كالمتاهة.

لماذا يسكنني حضور هذه المدينة التي لم أضع فيها قدميَّ منذ سبع عشرة سنة، منذ اليوم الأول الذي حبست فيه آية؟

أتقدم عبر الأزقة وليس في رأسي غير آية وذكرياتها المليئة سعادة وأحلامًا.

وحيثما تختفي أتبعها، إلى اليوم الذي كْلِيتْ فِيهْ راسْهَا! كلما مررت بها أحسست فـيَّ زهرة الرغبة وجنة اللذة. وتنمو في غابة فسيحة من الآثام كلما رأيتها. لقد تشهيتها طول حياتي. هي أيضًا كانت لها رغبة شديدة فـيّ. كنت باستمرار أرى نارًا تستيقظ في عينيها العميقتين الفاتنتين الشهيتين السوداوين سوادًا مذهلًا.

كنت أغار من إسحق... ذاك الذي اغتالته أمي. كان عمري إحدى عشرة سنة. آية كانت أكبر مني قليلًا. تكبرني بأشهر أو عام، وربما بثلاثة. لا أدري. في ذلك اليوم أودعت عضوي التناسلي الصغير المنتفخ المنتصب عاليًا بين أصابع يديها البيضاوين بياض الشمع.. أصابعها المثقلة بالخواتم الفضية والمصفحة بالذهب. دلكته لي بعناية وهي تبلل أصابعها بالريق الذي كان يسيل بغزارة من فمها. ثم بدأت تحك

بعنف. كنت أصرخ.. أرتعش. اكتشفت في أعماق عينيها نارا زرقاء وفي كفيها ذات البشرة الوردية الناعمة استمنيت لأول مرة. في ذلك اليوم.. اليوم الذي أحسست فيه بألم أول ممارسة لي للعادة السرية كانت أختي هنا إلى جانبي تدعمني وتدلك لي ركبتي وتربت على شعري وتضغط على قفاي. في لحظة الانتشاء كنت أصرخ بشدة كحيوان أصيب. كانت أمامي - كما في دعاء - صامتة.. منهكة. لم تكف عن مسح دموعها تارة وعن النظر إلى عضوي التناسلي بعينين مليئتين بنار سوداء مفترسة. كانت مثل ذئبة وفية تملؤها الشهوة والخوف والبهيميَّة.

انتابني شعور كما الخوف.. كما ألم شديد.. كما سعادة عظيمة. آية أيضًا كانت ترتعش. كانت تعتقد أنَّ بي مسًّا من الجن. أفرغتُ منيي في كف يدها اليسرى التي كانت أصابعها الخمسة دائمًا مثقلة بخواتم الفضة والخواتم المصفحة بالذهب. في صمتها الهائج الثائر الرهيب كانت آية مقطبة الحاجبين تراقب في سرية السائل الأصفر اللزج المتخثر الذي تجمد في كفها.

ثم اعتراها الخوف. شرعت تبكي وهي ترتعد.

ثم صرخت مثل حيوان مطارد وهي تنظر إلى يدها البيضاء:

"سينبت الشعر على كل كف تدنست بالمني. إنها علامة اللعنة الإلهية". هذا ما كان الأولياء يرددونه.

أنا أيضًا استبد بي الخوف.

نظرت إلى كفي. لا أثر لأي شعرة. شعرت بالطمأنينة.

يوم آخر.

في وقت القيلولة أحاطت أخواتي الست بآية. نزعت ملابسها. كنت أفترسها عبر ثقب قفل الباب وهي عارية. لقد كان يوما شعرانيًا كاويًا. للشمس وقع الرصاص والجمر وهي تنصبُّ على أهل العطر. في حالة ارتعاش كان شعرها منفوشًا متشابكًا، وبدأت تدور حول نفسها ثم راحت تحك فرجها الذي يغطيه زغب بمشط من الجاموس[2] شبيه بذلك الذي تستعمله أمي أو سارة لمشط الصوف. في نار الانتشاء رفعت صوتها الجميل الممزَّق وكانت تغني. أخواتي: العوانس الست الجالسات أو

المتمدِّدات على حصير من الحلفاء أو الدوم حولها لذن بالصمت وهن يحككن خفية فروجهن. وأنا في الخارج، في الحرِّ وراء الباب أراقب جسد آية العاري وأعين أخواتي العانسات الست وقد اغرورقت بالدمع والتمعت محمومة. كنت أتأمل المشهد وعضوي التناسلي منتصب بين فخذيَّ. فجأة تصاعدت إلى رأسي شعلة وارتعدت ركبتاي. راعشًا مرتعدًا هبطت عدوًا الأزقة المبلطة الظليلة الباردة صوب مراحيض مسجد الحي العتيق. تملكني الخوف وأنا داخل دورة المياه ذات الطراز التركي حيث يقوم المؤمنون بوضوئهم. اللـه هنا، وهو ينظر إليَّ.

شعرت كأنَّ لي ذيلًا وزوجًا من القرون على رأسي مثل الشيطان.. الملعون الأكبر من قبل اللـه ومن قبل النبي. كنت أمارس العادة السرية.

هبطت إلى الجحيم.

ثم نهضت.

بكيت. تضرعت للـه العظيم الرحيم واستغفرته.

تقدمت حافيًا على سجادة ملونة بالأخضر والأحمر.. سجادة الصلاة. في آخر هذه الحجرة الكبيرة الظليلة قليلة الإنارة - بيت اللـه - جثوت على ركبتي وأسندت ظهري إلى العرصة الرخامية ذات اللون الأبيض الخفيف. كنت أستمتع بالبرودة الصادرة عن العرصة، وحاولت أن أطرد صورة أختي آية وصورة مشطها الجاموسي. رتلت بصوت منخفض سورة الفاتحة. رتلتها سبع مرات. كنت أحاول أن أطرد إبليس الذي يسكنني.

ندم.

بمجرد أن تلقيت البرودة المنعشة من الرخام المزين بالآيات القرآنية وأسماء اللـه الحسنى التسعة والتسعين سطا عليَّ النعاس، وما أسرع ما طلب منِّي شيخ ملتح كان يقف على المنبر وأمامه تابوت، أن أغادر المكان قائلًا لي: "إنه وقت الصلاة." هكذا طردني فبحثت عن حذائي البلاستيكي المثقوب ووضعته تحت إبطي و توافد المصلون جماعات. سيصلون صلاة الجنازة. لقد كانوا كثيرين.

من غير شك كان المتوفى من الوجهاء.

لم يكن هناك إلا الرجال. تسللت من بين أرجل المؤمنين. صعدت أزقة حينا الرفراف الواقع على مقربة من حي جانيتو كانت جميع أبواب المنازل مفتوحة تقريبًا. هنا لا أحد يغلق باب منزله. كنت أفكر في أختي آية وفي مشطها وفي مُسرّح شعرها الكبير.

هذه المدينة اللغز تخرج كما من طيات حكاية حب أو مغامرات بلا نهاية.

ريحانة أو ندرومة. لا يهم، هذا هو اسمها، تدير رأسها لسحائب الصيف. الأعالي المقدسة للمنارات السبع ذات المآذن المقامة من الحجارة البيضاء والقرميد الأحمر تنبثق من حديقة بهار وأزهار وحبر المخطوطات الملونة بلون صفار البيض والأرق الكحلي والبنفسجي.

مدينة المجانين! قالها مرَّةً رحالة شهير.

مدينة الحبر والصمغ والدّراز.

مدينة الحُول ومزهريات الريحان والشرفات والموسيقى.

عند هبوط المساء بدأت الشوارع والأزقة تبدو

أعلى من الضَّباب الخانق الآتي من البحر. رفعت بصري. هبت نسمة منعشة لفحت وجوه الفتيات اللواتي كن متعلقات بنوافذهن ومَرَاوِحُهنّ في أيديهنَّ وأعينهن مفتحة على السماء العالية. وفجأة اخترقت الأزقة الملتوية الصامتة حياة صاخبة.

أتتبع عطر آية.

يوم آخر.

في هذا الصباح، ومثل كل الصباحات كان الناس يجتازون الأزقة ولا يتكلمون إلا قليلًا، بينما يراقبون كثيرًا. وبما أنه كان يوم السوق الأسبوعية فإن أمواجًا من الرجال والبهائم شرعت من الفجر تصب طنينها في متاهة الأزقة وعلى الساحة العمومية. من الفجر وهم يتدفقون، يضطربون، ينسحبون ثم يهدؤون جلبةً. في عباءاتهم الخضراء الملطخة بالدم من الأمام كان زنوج من ضاربي الطبول يمشون بخطىً ثابتة خلف عجل ملفوف في رداء ملون بالأحمر والأخضر وتتبعهم كالنمل جمهرة من الأطفال العرب واليهود. لقد كانوا ينشدون أدعية ويصيحون. لم يكن هناك صبيان رْوَامَهْ؛ صبيان الناس غير المختتنين آكلو الخنازير.

الصِّبْيان الأنْجاس.

وفجأة توقف ورفض أن يتقدم خطوة أخرى، وراح الصبيان يصرخون ويصرخون، ولم يزد العجل على أن نظر إليهم. لسعه رجل بإبرة فتصببت بعض قطرات من دم على جلده اللماع وراح الحيوان يهرول ويجري فانفجر الصبيان ضحكًا وصراخًا. كان العابرون يلقون قطع النقود في شاشية يحملها طفل. في الساحة العمومية الترابية، كان بائعو الحلويات: النوقة والشامية يقفون أمام منصاتهم الخشبية الصغيرة المغطاة بزرابي محلية صغيرة مغبرة أو يقفون خلف معروضات تجارتهم المتنقلة - كانوا يقفون أمام بضائعهم وهم يرددون أغاني تتغنى بالخمر المعتقة والنساء الجميلات. وكان آخرون يقرؤون أدعية ويترحمون على النبي محمد عليه السلام وعلى أصحابه السبعة.

المراكشي نافثُ اللهب والنار غائب هذا الصباح، بينما الآخرون جميعًا هنا: الذين يبعدون النحس؛ قارئو القرآن؛ مرتلو الأدعية؛ ضاربو الرمل و قارئو الفنجان. كانوا كلهم عُميًا.

في الأعلى.. على مرتفعات التل الذي يشرف

على المدينة، ليست هذه المتاهة إلا الملاّح أو الدرب. الحي اليهودي: سوق الذَّهب والأحجار الكريمة؛ سوق الصوف - أحد عشر صنفًا من الصّوف؛ سوق البهارات والحشرات المجففة.

اجتزت السوق درب الدراز، أو سوق القماش: أغطية عليها رسومات كبيرة - تتمثل في أزهار حمراء على خلفية زرقاء داكنة - منشورة على مداخل المحلات. هنا لا يسمع إلا أنين النّول. والصمت المطبق الذي يكمم هؤلاء الفتيان المتدربين الواقفين على الرصيف وقد تاهت رؤوسهم وزاغت بين عشرات الخيوط التي تلف أصابعهم الصغيرة الأنثوية وأعناقهم.

شباب وآخرون أكبر سنًا وشيوخ يمسحون أحذية المارة ويلمعونها وهم يغنون أو يرتلون بعض الآيات القرآنية ويدخنون لفائف التبغ التي يلفونها بأيديهم ويترشفون كؤوسهم الأولى من الشاي الأخضر بالنعناع. رجال ريحانه أو ندرومه. لا يهم، يهتمون كثيرًا بنظافة أحذيتهم وملابسهم التي يرتدونها أيام الجمعة والسبت. في الأزقة كما بين القبور، يتحرك الناس بهدوء - وكأنهم في حالة انخطاف - ويتجولون وأيديهم خلف ظهورهم. تحت ظل

جامع سيدي منديل وقف حاك راو يقرأ في كتابٍ قصة وصول أول سيارة إلى هذه المدينة:

"لقد حدث هكذا"

السلام على اللـه وعلى نبيه.

14 فبراير 1910 بقي مشهودًا في حوليات ميزاب لقد رأى الناس في حوالي الرابعة والنصف مساءً سيارتين بعجلات على الطريق التي تنحدر من القمة الصخرية في أقصى وادي ميزاب. ست دقائق بعد ذلك، تصلان إلى غرداية. هرع الجميع؛ لقد كان الرجال مشدوهين ذاهلين من سرعة هذا الحصان ذي العجلات! بعضهم انفجر ضاحكًا وضرب آخرون كفًا بكف! وزغردت بعض النسوة الفضوليات. بعض الفقهاء كانوا هنالك ملتفين في برانيسهم وقد أسدلوا أجنحتها اليمنى على الكتف الأيسر وغطوا بها أعناقهم. هؤلاء الطَّلبة حفظة ومفسرو القرآن، ما الموقف الذي سيتبنونه أمام هذا الطارئ؟ عربة تسير من دون حصان! التزموا الصمت والهدوء ثم صرَّحوا أن هذه السيارات تحركها أحصنة غير مرئية- أي عدد من الجن - طوَّعتها ساحرات الروامَّه وعليها أن تجرَّ أحصنتهم. إذن الركوب

في هذه السيارات حرام. والسلام على اللـه وعلى رسوله."

بائع الفطائر كان يغني بصوت قد امتزج بشقشقة الزيت. صوته منكسر هذا الصباح.

ملتصقًا بالجامع كان الحلاق الذي هو دومًا بذقن رديء الحلاقة. في هذه الساعة كان الحلاق كعادته جالسًا على عتبة بابه يراقب العابرات والعابرين ولا ينظر إلا إلى رؤوسهم.. إلى شعورهم. هو أيضًا مكلّف - وهو وحده - بمهمة فريدة وهو فخور بذلك: كراء أواني وجرار النباتات الخضراء: النباتات الحقيقية الحية أو الاصطناعية من البلاستيك في الاستعراضات الجنائزية أو في حفلات الختان. انتبهت فيما بعد إلى أنه هو أيضًا كان يحب أختي آية. يقولون إنه يحتفظ بصورتها مبتسمة وقد بدت أسنانها الجميلة. اللـه وحده من يملك حقيقة القلوب والألسنة.

لأنني غيور سوف أحكي فيما بعد قصة غيرتي وكيف ارتحت يوم موت غريمي إسحق: لقد كان يشاركني حب آية.

فوق المدينة سماء شديدة الزرقة وتحت حرير

شمس كاوية كانت النسوة يتمتمن أشياءهن وحكايتهن.

في الصيف لا يترقب الناس إلا ظلال الحيطان وعطور النسوة الخارجات من الحمام.

تستمر القيلولة وتطول حتى وصول ظل شجرة السدرة الكبيرة إلى أسفل جدار الساحة الدائرية، ولم يكن يسمع غير غنج النسوة وتنهدهن وهن سابحات في لذتهن وشهوتهن.. محلقات في نشوتهن. على حافة انتشائهن في ساعات القيلولة عندما يفترس الحر المدينة في شهر يوليو وفي شهر أوغسطس، تتجمع نساء سحاقيات في دار تدعى دار القايد فتتصاعد شهقاتهنَّ إلى السماء الزرقاء المجللة بسحابة من الغبار. كن يتبادلن احتكاك الأجساد بعد أن يدهنَّها بزيت الزيتون الذي يجلب من القدس أو من جنين. كانت التنهدات تسري عبر الأزقة ورائحة أجساد أنثوية معطرة تغطي المدينة.

يلـوذ الرجـال بالصـمت. يسـتهلكون كميـة أكبـر مـن الشـاي والتبـغ ويـرفعون صـوت أجـهزة الترانزيسـتور أو الفونوغـراف. كـانت أسطوانات الثلاث وثلاثين

دورة تدور باستمرار وهي تبعث أغاني الشيخ ابن سوسان أو الشيخ العربي بن صاري أو الشيخ غفور. ترتفع صرخات نسوة هائجات إلى عنان السماء ويرتفع معها عطر جسدي.

ويلوذ الرجال بالصمت. يغلقون آذانهم حينًا ويرفعون صوت الترانزيستور أو الفونوغراف حينًا. هذه الأجهزة التي تشتغل ببطارية جماعية. ينتظرون حلول الشتاء القادم.

النساء لا يخفين رغبتهن المحمومة، والرجال يغمضون الأعين على هذه الممارسة الجنسية التي صارت - صيفا بعد صيف - محبوبة مستحسنة معترفًا ومسموحًا بها من قبل سكان مدينة الموسيقى والحول والحبر والقلم والكلام هذه.

الرجال يقضون أوقاتهم في احتساء الشاي الأخضر بالنعناع كأسًا بعد أخرى وهم يلفون سجائر التبغ أو الحشيش لفافة إثر أخرى ويتحدثون عن صنف من الطماطم البيضاء غزت السوق.

إنهم منشغلون أكثر فأكثر بالشعر الشعبي الذي كان ينظمه سي قدور بن عاشور

وبيوميات سي امحمّد برّحال التي عثر عليها أحد الحكماء في المكتبة الملكية بالمغرب وهم منشغلون بأسعار التمور والتين المجفف التي لم تتوقف عن الارتفاع، ويتحدثون عن نوع من الدود الأزرق والدود الأحمر يسكن هذه الفاكهة.

العطور القوية تغزو الأزقة المبلطة بمجرد أن تغمر موسيقى الأستاذ ابن سوسان سماء المدينة. النساء في أثوابهن الطويلة ذات الألوان الزاهية المثيرة يفتحن النوافذ المصبوغة بالأخضر والأبيض مبتسمات خجولات مذكرات. نداء المؤذن لصلاة العصر يخرج الناس من مقيلهم، ويصحو الحرير.

وما إن يغطي الظل الأول المنعش أزقة حي الرفراف الصغيرة حتى تنفتح الأبواب محدثة موسيقى لذيذة: قرقعة المصاريع الصدئة. وتنبعث رائحة القهوة بالحبة الكحلة. يخرج الناس ويأخذون مكانهم أمام أبوابهم يتحدثون عن الزيجات وأسعار السكر والصوف والشاي والسميد ومهور العرائس والحمامات. ومن حين إلى آخر عن السياسة وعن المنخرطين فيها.

يشرب الشاي الأخضر بالنعناع في كل مكان: في الحافلة، في المكاتب؛ في المساجد وعلى الأرصفة.

تدعى نساء هذه المدينة: النحلات أو الحمامات. إنهن فاتنات. وكلهن يزرعن الياسمين والنعناع البري و الرصن واللبلاب والخزامى والرند والسوسن، وخفية عن الرجال يزرعن نبتة نادرة تدعى الغيرة.

إن الغيرة زهرة لا تنبت إلا في ندرومة أو ريحانة. لا يهم.

أنا غيور.

الكل غيور!

عطيل - هو أيضًا - كان غيورًا.

أتقدم وأنا أهبط وأصعد سلالم هذه المتاهة تحت ظلال الأزقة العتيقة المبلطة التي تعكس نورًا خاصًا؛ نورًا قمريًا. النسوة يثرثرن ويتخاطبن بالأعين والنظرات وهن يعبرن ويجتزن جزءً من الطريق.

لم يعد كلامهن كلامًا: كل لفظ مشفر.

أعشق موسيقى أعقاب أحذيتهن الحادة.. هذه الموسيقى المنتشرة كغبار أحجار الحلي أو كالضوء على الرخام أو على الأرض المبلطة. في هذه الأزقة للحيطان ألسنة و أعين مفتوحة باستمرار، ولها آذان أيضًا.

تثرثر النسوة من فوق الجدران الخفيضة للأحواش.

وخفية عن أمي وزوجة أبي وبغير علمهما كانت آية تربي قنفذًا وسلحفاة وكان لكل منهما اسمه ومداعباته.

تهرب الساعات، سريعة.

قلبي منقبض.

جاءت تتمنى لي سفرًا ممتعًا وعودة سالمة، وكانت صامتة مضطربة واقفة مثل شجرة متعبة.

أرجع إلى بيتي.

صوت آية يتبعني ويحرجني:

"إلى أين أنت ذاهب تحمل رحالك هناك بعيدًا عن طريقي وعن عينيَّ؟ ستعود..."

أرى وجهها المدور الشاحب الباهت يشع في حضوري، ويضيء بمسحة وردية خفيفة. وما إن وضعت خطوتي على الطريق حتى اختفت الابتسامة، وانطفأت لتفسح المكان للرماد.. لسحابة من المرارة والحزن يفترض أن تكون التعبير الاعتيادي لهذا الوجه الملائكي.

غادرت آسفًا أن أخلِّف ورائي رؤية مضيئة يبدو أنني لن أراها أبدًا...

وكلما تنامت موسيقى خطواتي ورائي في الأزقة والطرقات كنت أفكر وأحلم..

حزين!

في الحين تراءى لي رماد طغى على اللهب الذي كان قديمًا يتألق في عيني آية. ساد ذلك القرية العتيقة كلها ريحانة أو ندرومة لا يهم! انسحبت. منطفئ أنا.

ألقي نظرة أخيرة على الأفق. أفق عظيم يلذ للعين. فوضى تلال بهية.. فوضى سحائب أغسطس في أشكال حيوانات عجيبة! متاهة غريبة لهذه المشاهد العابرة من لون لآخر في حذق ومهارة خارقة! أرجع إلى بيتي!

أقوم بالحداد على أبي وعلى أمي أيضًا.

أعود إلى زوجتي.

أحاول ألاَّ أرجع إلى الوراء: اعتراني شعور بالخوف. مجموعة من الفتيات الشابات يغسلن الثياب. يثرثرن ويطلقن ضحكات مجنونة في السماء. سيقان عارية، بشرة بيضاء فاتنة مغرية. كن ينشرن ويطوين ويعركن بأرجلهن الأقمشة الملونة على الحجارة اللامعة بحركات راقصة. وكن ينشرن ويطوين ويُدرن على ألسنتهن قصص الحب والغيرة وحكايات الرجال.. يتصاعد صرير البكرة في الصمت: إنهن يستخرجن الماء... نفس أخير ضد العطش، يسيل خيط رفيع من ماء كدر محمر من سبيلٍ للعموم.

أقوم بالحداد على أبي وعلى أمي أيضًا.

أعود إلى زوجتي.

وكان قرَّابٌ شيخ.. سقاءٌ يبيع الماء، عليه ملابس خضراء وفي يده راية كبيرة خضراء، يعرض على المارة ماءً باردًا يصبه من قربة مصنوعة من جلد تيس أو من الحلفاء في إناء نحاسي مطلي بالقطران، ويروي بصوت عال

حكاية الجازية الأميرة البربرية وهو ينشد بعض المقاطع المنغمة. تترك الشابات غسيلهن ويتحلقن حول القراب.. الطير الأخضر.

"ياسيدي مرحوم الوالدين".

... الجازية إذن تزوجت. تزوجها ابن علي الشريف. تزوجته ولم تكن تحبه. أنجبت منه ولدين: حمدة وأحمد، وكانت ترغب في الهروب من داره. لم تكن تريد الهروب تحديدًا. كانت تريد... عندما تزور عائلتها ألا تعود إليه أبدًا. لم تكن سعيدة بقدَرها. كانت تنوي أن تحضر له مكيدة لتجبره على تركها تعود إلى أهلها... إلى ذويها.

هو - ابن علي - كان يعشق لعب السيق: نوع من أعواد الميسِر. قالت له: "أقبل ملاعبتك ورهاني هو: إذا غلبتك أطلب ما يحلو لي وإذا غلبتني لك ما تريد." فرد: "لك ذلك"

كانت تعلم أن ابن علي الشريف كان فيه تسعة وتسعون عيبًا: فلم يكن في مقدوره أن يتعرى.

كانت تتهيأ لذلك منذ أمد طويل. ولاعبته السيق. في البداية ربح هو، فقال لها: أطلب

منك أن تتعري تمامًا أمامي. فردت: "موافقة" وأردفت: "لكن استدر إلى هناك." استدار. حلت شعرها فغطاها كلية. ولم يظهر جسدها فيما عدا أنفها وإصبع رجلها. حينها قال: "ولكنني لا أرى غير أنفك ورجلك." فأطلقت: "آه يا أنفي! آه يا إصبعي! أنتما اللذان عرضتماني لهذه المواجهة.. الأنف خليتك للصبحات.. للجليد، والإصبع خليتك للضربات" كانت تريد ألا يرى من جسدها شيئًا.

عادا إلى اللعب من جديد. وفي اللحظة التي ربحت قالت: "يجب أن تتعرى أنت أيضًا."

قال لها: "اطلبي مني ما تشائين ولكن لن أتعرى." فردت: "إذن دعني أعود إلى ذويّ."

فأجابها: "لا حيلة لديَّ. اذهبي إلى أهلك ولكن أقسمي أن تعودي إلى هذا البيت"

أقسمت. وقاموا بالتحضيرات.

يا سيدي مرحوم الوالدين/الرحمة على الوالدين.

شرب الحاكي شايه وطيَّب حلقه.

تعهدت لبيتها بالقسم: "أقسم لك يا بيتي بأن أعود".

سأعود إليك رفقة حمدة وأحمد. نعم حمدة وأحمد سيكونان حاضرين. حمدة على الركبة اليمنى وأحمد على اليسرى. وغادرت بعد أن قطعت أربعة أو خمسة كيلومترات، وتذكرت فجأة شيئًا ما فقالت له: "لقد نسيت مشطي العاجي المرصع بالألماس.. يجب أن يكون معي حتى أتمكن من عرضه أمام الهلاليين في سهراتهم" فقال لها: "لا بأس".

رجعت إلى البيت. وضعت صبيًا على جهة والثاني على الأخرى. وقالت لبيتها: "ها قد بررت بقسمي يا داري."

هكذا تحللت من يمينها واعتلت راحلتها وانطلقت، ومن هذه اللحظة لم ترجع أبدًا.

يا سيدي مرحوم الوالدين الرحمة على الوالدين.

ما إن تيقن ابن علي أنها لن تعود حتى اندلع خصام بين قبيلتي الهلاليين والزناتيين. أرسل إليها ابنها البكر: "اذهب إلى أخوالك واصحب أمك إلى هنا."

انطلق هذا الأخير إليهم فأجابوه: "قضي الأمر ولن تعود" وفي طريق عودته صادفه طائر كركي فأسقطه بطلقه من بندقيته ووضعه على السرج أمامه. كان جناحاه يتدليان إلى الأرض؛ أبيضان يحفهما سواد. عندما لمح أبوه من بعيد ابنه يحمل الطائر ظن أن ابنه قد جلب أمه معه وشعرها هو الذي تراءى له يتدلى فسر لذلك وفرح. ولكن الشيخ عندما تبين المنظر جيدًا وجده كركيًا فقال لابنه: "بعثتو يجيبلي المخيّره جابلي غرنوق!.. يا حمده يا ابني."

بعد هذا قرر أن يستعيدها هو نفسه بالقوة، وقرر مهاجمة الهلاليين. اختار أفضل رجاله واتفقوا على اليوم الذي يكون فيه رجال قبيلة الأعداء غائبين عن المضارب. لقد كانت القبيلة خالية من أبطالها. يا سيدي مرحوم الوالدين/ الرحمة على الوالدين.

اقتادوا الجازية معهم. في الطريق حلت شعرها وأرسلته على السدرة.. على أشواكها. هذا عطَّل المحاربين الذين سارعوا إلى تخليصها.

ابن علي زوجها الذي يهيم بها أصدر أمره إلى

رجاله: "ستفكون وتسرحون شعر الجازية شعرة شعرة ومن يقطع شعرة واحدة سأقطع رأسه." دار الفرسان حول الجازية يخلصون شعرها من أشواك السدر وهي جالسة..

بهذا تمكن رجال قبيلة الجازية من اللحاق بهم. وبدأت معركة.. في هذه اللحظة لاح البطل ذياب على صهوة فرسه البيضاء. يا سيدي مرحوم الوالدين/ الرحمة على الوالدين.

"سأقص عليكم باقي الحكاية يوم السوق القادم."

وتساقطت بعض قطع النقود القليلة داخل شاشيته المتسخة الموضوعة على الأرض.

امرأة تهدهد طفلها وقد غابت ملامح جمالها تحت الهزال. لم يعد جسمها غير عود ثقاب محترق في فستان أسود بائس.. تبدو في حالة إهمال عند مروري علقت أغنيتها على حبلها وراحت تنظر إلى وجهها في مرآة بالية علقتها على السور..

خيل إليَّ أنها آية. لم يبق فيها من أثر سوى ظل فوق شكل. ولاحت دمعتان على أهدابها الطويلة. انحنيت لأمسحها. أبعدتني وقالت لي

بصوت يثير الشفقة: "دَعْني..."

فجأة صرخت بقوة: "- آية! آية!.."

لا أحد من هذه الجمهرة الغفيرة التي انفضت من حول الحاكي كلف نفسه عناء الالتفاف.

لا أحد انتبه إلى حضوري؛ إلى جرحي؛ إلى صوتي.

دون جدوى.

شعرت بأذنيَّ كالمسدودتين.

يمر النَّاس أمامي ويمرون.

آية - كما نعجة وديعة عابرة - وهي تخطو داخل الصمت عادت إلى زنزانتها دون أيِّ كلمة لتبقى أيَّامها ولياليها - كل الوقت الذي لها من هذه الحياة - مربوطة بسلسلة حول عمود حيث ربطها القدر. استمر هذا منذ سبع عشرة سنة.. منذ ذلك اليوم الجهنمي في ذلك القسم حيث يتعلم صبيان المسلمين القرآن في النهار وصبيان اليهود وبعض المسلمين الموسيقى الأندلسية في الليل.

منذ سبع عشرة سنة وسارة تتألم بعينين

رماديتين لوزيتين طوال أيام وأيام، لمرأى الأرضية طوراً، وحواف السطح الملطخة بفضلات الحمام تارة أخرى، وأحايين أخرى لابنتها آية التي تراقبها من خلال ثقب المفتاح وهي مربوطة إلى رجل السرير أو القضيب الحديدي تدخن سيجارة إثر أخرى وتخفف من حدة جوعها بحبات تمر جاف وتترشف من حين إلى حين جرعات من الأنيسون أو البوخا.

الخنثى

كما عند كل غروب، صعدت إلى السطح.
ضممت آية بين ذراعيَّ.

اليوم جمعة: المرأتان - أي أمي وزوجة أبي - لا تستطيعان نصب نولهما.

تحتنا؛ إلى الأسفل كانت القرية العتيقة هكذا: طائرًا خرافيًا.

في وقت النوم كانت ريحانة أو ندرومة. لا يهم، فاتنة بمنازلها المكتظة وطرقاتها الملتوية.
وهي كذلك من الطرف الآخر حيث تبدو نصف دائرة من إشعاع الغسق منحدرًا متموجًا على الربوة المغطاة ببعض أشجار السرو الرافعة رؤوسَها عاليًا إلى السماء...

طائر خرافي!

بدوره ينبثق النهار لازورديًا من سمائه منتشرًا على الجدران البيضاء المطلية بالجير، وشيئًا فشيئًا يغادر الأبواب الخفيضة ذات الأقواس.

هدوء رقيق يدغدغ أعماقنا بلطف.

على الأسطح - مكان مواعيد الحب ومنطقة الآثام والأحلام - كانت فيالق من الحمام الأبيض والأزرق تأوي إلى أعشاشها.

تذكرت حاكم إحدى المدن، الذي قرر القضاء على كل الحمام ذي الريش الأسود والأزرق حتى لا يتكاثر في مدينته إلا الحمام الأبيض. حماقة!

استمر الصيف رغم أننا في أكتوبر. رطوبة المساء تنعش الأجسام. في وقت الغروب تتحول الأسطح إلى جنات من الهمسات والمناجاة الأنثوية... تصير حدائقَ من قصص الحب.. عناقيد من غناء الخطاطيف... النوارس من كل صوب تمر محلقة فوق رؤوسنا.

قالت سارة زوجة أبي: "لم يشأ اللـه أن يكون الأمر على غير هذا".

سارة الحارسة ليست إلا الوجه الآخر لآية. هي أسيرة الأسيرة. استمر هذا منذ سبع عشرة سنة وربما أكثر.

على هذه الأسطح تنتشر رائحة البن التركي الباشا أو البن اليمني موكا، أو الشاي التلمساني بالنعناع، أو عطور الفتيات

البالغات!...

كنا غارقين محاطين بهذا المساء السحري الذي يهبط متمهلًا من الشرق - من بلاد الشروق - ونحن نتقاسم - أنا وآية - هذه المملكة الزرقاء التي لم تكن غير السماء، وككل مساء كنا نتبادل القبل... نحترق ونتلاشى ونتقاسم نجوم السماء؛ رأسمالنا. كل هذه السماء المتدفقة فوق رؤوسنا هي مملكة الأحبة... بلاد الأحلام.

ككل الليالي الصيفية السابقة كنا نَعدُّ ونَعدُّ ونكرر العدَّ على الأصابع العشرين الصغيرة لأيدينا الأربع جميع نجوم اللـه الصغيرة والكبيرة؛ القريبة والبعيدة، بابتهاج نقتسمها بالتساوي.

كنا نبكي حزنًا على النجوم التي تنفجر ملتهبة متساقطة من السماء مشكلة خطًا طويلًا سريعًا من الضوء. لقد كانت تنتحر.

"إنه لمرعب موت نجمة" قلت هذا لآية التي ترقد بين ذراعيَّ، غطيتها بطرف سترتي. كانت مرصعة بالنجوم وهي راقدة: على عينيها المغمضتين المبتسمتين، وعلى أصابعها

الشمعية البيضاء.

في هذه الساعة؛ ساعة الهمس والمناجاة والوشوشة فتحت امرأة الستائر الخشبية الخضراء وحادثت أخرى.

اجتاز رجل بابًا وقد خانه سعال ضاقت به حنجرته وراح يحاول تجنب الضوء المنتشر من نافذة مقابلة.

في خطوات متناغمة تردَّدت امرأة - مغرية في ترددها - لاحت برهة لبصر عشيقها المشتعل لتعود مسرعة متحاشية ضوء العمود الخافت باحثة عن مخبأ في العتمة أو في ظل الجدار.

صلاة الكسوف.

العشاق... لقد كانوا في كواكبهم هائمين.

هكذا، ليلةً بعد ليلة؛ موسمًا بعد موسم، نبتت على الأسطح قصص الحب وأزهرت وعلقت على النوافذ ذات الدَّفات المصنوعة من الخشب العتيق المتآكل، المطلية بالأخضر أو الأزرق. كانت هذه الحكايات تولد وتكبر يومًا بعد يوم في محابس الريحان المعلقة على الشرفات...

كانت تولد وتكبر في القلوب.

نساء ريحانة أو ندرومة - لا يهم - يتنامين مثل حكايات الحب، مثل الريحان في محابس الطين الأحمر على رفوف النوافذ.

وكعادتهنَّ.

واحدة إثر أخرى خرجت أكثر من عشرية من النساء... كوكبة من الغزالات القلقة المعطرة الغيورة المتآمرة... خرجن من الأحواش لشم هذا الهواء المسائي المنعش... لتأمل السماء وللكذب مرة أخرى على النجوم؛ جميع نجوم اللـه العظيم... ينحتن أكاذيب جميلة ويجعلن لها أجنحة لتطير إلى أعلى...

النجوم كانت تكذب على النجوم.

صلاة الانتظار فوق الدَّفات البكماء.

من دون هذه النوافذ، بأخضرها، بحكاياتها، بنسائها وظلالها لم تكن لتوجد هذه السماء العالية الجميلة.

وفي هذا الحي المسمى الرفراف أو جانيتوه كانت النساء السحاقيات يمارسن في حرية

مطلقة حياتهن الجنسية العنيفة. على كل باب خشبيِّ كانت حدوة الحصان مثبتة رمزًا للضيافة، كان السكان يقولون إن حدوة الحصان ليست إلا دعوة للمسافرين أولئك الذين يلقبون بأبناء السبيل إلى الراحة وتناول الطعام.

من على هذا السطح حيث كنت جالسًا أحضن آية بين ذراعيَّ، كنت أتأمل الأفق في عينيها؛ الأفق الذي مازال يحتفظ بآخر خيوط ضوء النَّهار، وكنت أسمع الضحكات المجنونة للنسوة المنتشرات في الأزقة المعتمة الرطبة وعلى عتبات الأبواب ذات ستائر الموسلين، التي ترفرف حين يتحرك تيَّار هواء الأزقَّة المتقاطعة.

عند هبوط الظلام تنفتح النوافذ واحدة تلو الأخرى. وكنت أشعر بما يشبه الخوف أو البكاء. وكانت أغاني ومراثي دقَّات النوافذ الخضراء وهي تدور على مصاريعها الصَّدئة ترتفع وتتصاعد كسيمفونية. قلبي.

كنَّ هنا في موعدهن الليلي هذا المساء: بعض النسوة مقرفصات متحلقات في صحن الدَّار المغطَّى بمرمر لمَّاع نظيف ملوث بالأصفر

والأزرق - حول فناجين القهوة المعطرة بماء زهر البرتقال وهنَّ يعلقن على كل شيء ولا شيء. الرجال! آه الرجال!

لم يكن يسمع إلاَّ صوت يشبه الموسيقى؛ حفيف أجنحة النحل؛ لغة عصافير سحرية.

أصوات الأمس نفسها؛ واليوم الذي قبله نفسها.. تحكي قصصًا أخرى.

صوت ينبعث من خلال فرجة مضيئة بين غصنيْ دالية، ويبدو أنَّه يصَّاعد إلى السماء مثل طائر سحري.

فتحت أخرى قلبها: باب السماء!

خطوات متناغمة راقصة للأرجل الرقيقة العارية الغارقة في أحذية ذات كعب طويل حاد كانت تقطع الأزقة.

الرؤوس مطأطأة تحت الدوالي حتَّى تنقي أغصانها وعناقيدها التي تعترض الوجوه وتلامسها.

هي خطاطيف الليل.

همسات: لغة عصافير عجيبة وخرافية.

عطر نعناع ينتشر وينبعث من مربعات حديقة الفناء المبلولة: الجنينة.

بسرعة البرق تحت نور العمود لاح ثغر امرأة بشفتين ممتلئتين متعطشتين مصبوغتين بالمسواك. ثم لا شيء.

امرأة أخرى أغلقت الباب خفية وفي سرية وانسحب خيال رجل. انتبهت الآن وللمرَّة الأولَى أنّ في زاوية هذا الزقاق نخلة كبيرة وحيدة ومنسية منذ سنوات قد ذهبت في السماء تاركة سعفاتها ذات اللون الأزرق الرمادي تتدلى على حيطان المنازل المجاورة.

من سمواتهن - كسرب من النوارس المترددة قبل الطيران - كانت النسوة يطردن ضباب الوحدة وظلال العتمة ويحلمن بالرجال وبهذه القصص حيث يدوم البحث عن المفتاح الذي يفتح القصر المشتهى سنوات وسنوات. كانت آية نائمة في أحضاني كملاك.

عند الفجر الذي حل بدأت الأزِقَّة تبدو أعلى من الضباب الخانق القادم من الغرب ومن الشمال، وهب نسيم صباحي منعش داعب وجه آية.

كان رأسها على ركبتي. النساء الأخريات كن

معلقات إلى نوافذهن وأعينهن مفتوحة على السماء العالية.

سرعان ما بدأت حياة صاخبة تقطع الأزقة الملتوية الساكنة.

يوم آخر قد بدأ... شمس أخرى.

وكنت أصغي وأتأمل السماء وفجأة تبخرت الألوان.

كنت أتابع الحركات البكماء للغريمتين.. للثعبانين: زهرة وسارة؛ أمي وزوجة أبي... اللتين تتقاسمان جسد نفسٍ الرجل: أبي. كانتا تتقاسمان نفس السرير أيضًا. لم تكونا تتبادلان الكلام. هذا الصمت أو بالأحرى هذه الحرب الخرساء العنيفة مازالت دائرة منذ ولادة ذكر سارة الأول: أخي غير الشقيق إسحق الذي لم تُفارقْ قط عنقه الودعة المباركة السوداء. غير أنهما كانتا تتبادلان بعض رموز لأحاديث ليلية بمجرد أن تكونا على السرير الكبير: سرير الثلاثة - أبي ممددٌ في الوسط الذي يشبه شيئًا لا شكل له.

ثم لا شيء. وهكذا نسي الجميع أخي إسحق وبركة ودعته. لم يبق منه إلا هذه الحكاية.

من على هذا السطح كنت أسمع.

كان صوت الفقيه الأجشّ رئيسيًا طاغيًا قويًا. كنت أرتعد في صمت مختلج صاخب فريد. لم أكن أرى شيئًا. تلمست عضوي التناسلي الذي رد إلي برودة قاسية في كفي وأصابعي.

شعرت برغبة في التبول على جسمي.. في سروالي.

وكان الفقيه يقول إنه يحفظ عن ظهر قلب أشياء رهيبة:

"هذه الحالة - إذا جاز القول - لا تصنف."

لم أفهم شيئًا.

ضغطت على خصيتي بكفي الملطخة بعرق بارد. انزلقت كرتاي الصغيرتان في تجويف أسفل البطن.

"إنه امتحان الل.ه. ولم يمنع ذلك الفقهاء وعلماء الشريعة والقضاة من أن يسنوا أحكامًا وقواعد صارمة ودقيقة لمعالجة هذه الظاهرة؛ هذه اللعنة التي تحط على نسل المسلمين ممَّن كان لأحد أقاربه علاقة جنسية قريبة أو

بعيدة مع الدم اليهودي."

كان أبي مسمِّرًا بصره بين ساقيه. لقد كان صامتًا كأنه في حداد.

وراح الفقيه يلح وهو يرفع صوته قليلًا.

"لنر أولًا ما هو تعريف الخنثى. إليك ما يقوله الكلبي الفيلسوف والمفكر الإسلامي: للخنثى عضوان تناسليان أحدهما ذكر والآخر أنثى. والعضو الذي يتبول منه أولًا بشكل رئيسي هو الذي يميزه."

هويت في غياهب صمتي.. جسدي كان يتحلل... يذوب. وأحسست بتعب وإنهاك كبير. كنت أفكر في سارة.

كان الفقيه يحتسي الشاي بالنعناع وهو يبصق من حين لآخر في إناء من الطين ما كان في فمه من تبغ؛ تبغ معروف بالعلبة الحديدية ذات الشكل الدائري التي يباع فيها، والتي كانت تحمل عبارة ماكلة الهلال. قبالته كان أبي صامتًا لا يقول شيئًا؛ كان حزينًا، رماديًا، مطفأ على شفا متاهة.. ورطة..

"... في حال التساوي يكون الإشكال، لأن كمية

البول الأصفر التي تخرج من عضو أو من آخر لا يمكن أن تكون معيارًا يعتد به، ينتظر بلوغه وظهور بعض خصائص الذكورة. إذا نبتت له لحية وإذا كان في وسعه أن ينكح امرأة، وإذا كان يقذف منيه، إذا احتلم، فإنه رجل. وعلى العكس إذا كان يحيض وله ثديان ناهدان أو يدران حليبًا وإذا كان في وسع الرجل جماعه فإنه امرأة."

لقد كان يتكلم عن أخي إسحق.

كنت متأكدًا من أن أمي كانت تنصت - من غرفتها - إلى ما يقوله ويستظهره هذا الفقيه عشيقها. كنت متيقنًا أيضًا من أنها كانت مصابة بالسعار والغيظ والقلق؛ وكنت متأكدًا من أن سارة كانت مرتعبة وهي تتابع خطبة هذا الأعمى هاوي اللبن وعاشق أمي زهرة. "... ولكن إذا لم تظهر أي واحدة من هذه العلامات والخصائص، أو إذا ظهرت ولكن بصفة متناقضة فإن الغموض والإشكال يكون أساسيًا... ونكون حينها أمام خنثى حقيقي. إنها اللَّعنة اليهودية؛ صرخة الدم اليهودي في عروق النسل المسلم!" ألحت علي رغبة في البول. كان عضوي التناسلي ينام في كف يدي اليسرى

مثل عصفور متعب وهو يطلق نوعًا من الدفء المتنامي شيئًا فشيئًا.. دفء روحي.

كان عطر سارة يصل إلى أنفي.

"... عندما يكون الإشكال حتميا والغموض صريحًا واضحًا فعلينا أن نتوخى الحذر وندرأ الشبهة: يصلّي محجَّبًا بين صفوف الرجال وصفوف النساء."

رحت أدلك عضوي التناسلي. العصفور الصغير المتعب بدأ يستيقظ قليلًا مثل الحرير أولًا، ثم راح يتصلب شيئًا فشيئًا مثل قضيب صلب قاس.

صوت الفقيه الذي كان يشرح لأبي حالة أخي إسحق أعانني على إيقاظ عضوي التناسلي وانتصابه.

بحثت عن فرج آية الصغير ورحت أحكه بشدة. آية مازالت بين أحضاني. لقد كان فرجها دبقًا لزجًا. وللمرة الأولى تناولت آية عضوي التناسلي في فمها الصغير.

"... وإذا صلى في الصفوف المخصصة للرجال فإن المجاورين له مباشرة على الجانبين ومن

الخلف ومن الأمام عليهم أن يعيدوا صلاتهم وإذا أدى الصلاة في الصفوف المخصصة للنساء فإن عليه هو أن يعيد صلاته."

سكت. لم يكن حولنا - ونحن جالسان على هذا السطح - سوى العتمة والصمت وصوت الفقيه الآتي من الأسفل؛ من الصحن. ثم رحت ألحس فرج آية؛ وأدخل فيه لساني وهي تتلوى.

كان ساخنًا... لاهبًا! طارت آية سنونوةً، ثم ولجتها. صعدت شهقة في السماء - مملكة الشهوة - الملاك.

"... يمنع عليه ارتداء الحرير والحلي. خلال الحج لا يلبس المخيط ولا يسفر لا أمام الرجال ولا أمام النساء. ولا يسافر إلا ملثمًا. لا يختتن من قبل رجل ولا امرأة ولكن تُشترى له من ماله أو من بيت المال أَمَةٌ تقوم بختانه".

وشعرت بالغثيان.

"عندما يصبح راشدًا يمنع عليه حضور تغسيل الميت رجلًا كان أو امرأة. وإذا مات هو قبل تحديد جنسه فإنه يدفن دون غسل ولكن يجرون له تيمُّمًا.

ويكفن في خمسة أكفان وينصح بتغطية قبره بستار إزار خلال وضعه داخل القبر.

إذا أقيمت صلاة الجنازة جماعيًا - أي إذا صليت على أكثر من مُتوفٍّ - فإنهم يضعون الرجل أمام الإمام وخلفه الخنثى وخلفه المرأة وتقام الصلاة عليهم معًا."

كان رأسي يدور. وضع الفقيه يده اليمنى على المصحف واحتفظ بكوب شايه الساخن في اليسرى.

ويداي أنا كانت على فرج آية الصغير.

"... وفي الميراث عند الشافعي فإنه لا يأخذ منه إلا حقَّ الأنثى أي: للخنثى نصف حق الذكر. أما عند أبي يوسف فليس له إلا ثلاثة أجزاء من سبعة من التركة..."

فجأة ضاعت خصيتاي في تجويف أسفل بطني. كنت أرتعد. وفجأة استحال فرج آية الصغير قطعةً من جليد.

رتل الفقيه بعض الآيات القرآنية. على الدوام ينتابني شعور بالرهبة من كتاب اللـه. سحبت يديّ من بين فخذي آية. اعتدلت في جلستي

ورحت أردد ما كان الفقيه يقوله. آية هي أيضًا كانت تفعل الشيء نفسه.

"... إذا ثبتتْ عليه تهمة السرقة فلا تُقطع يده، وإذا تحتم أن يؤخذ منه القصاص والقود أوَّلُه، فيجب معاملته كامرأة سواء كان جانيًا أو ضحية."

ورحت أفكر في هذه اللعنة التي حطت على عائلتنا الكبيرة، والتي كانت السبب في فقدان أخي إسحق.. كانت السبب في اغتياله من طرف أمي زهرة. الدم اليهودي الذي يجري في الدم المسلم.

أحسست - ولست أدري لماذا - بأن أخي إسحق لم يمت... بأنه يتخفى في مكان ما: على أرض بين الماء واليابسة، بين الهواء والصلب. أحسست بأنه سيعود يومًا ما.

آية كانت بعيدة...

أيقظني صوت الفقيه.

"... هذا القانون الازدواجي الغامض سمح لبعض الخنثاوات أن يدخلوا عالم النساء السري وأن يكتشفوا ما ليس إلا للأزواج الحق

في رؤيته."

أمد أذني وأنصت.

أمد أذني وأنصت.

// // // //.

// // // //.

// // // //.

// // // //.

// // // //.

أمد أذني وأنصت وأبحث عن ثغر آية.

"يروى أنه في أحد الأيام بينما كان رسول اللـه في بيته دخل على أم سلمة أحد الغلمان المخنثين، وقد وَفَدَ من المدينة، ويدعى هيت وراح على مسمع من الرسول ﷺ يصف بطريقة جنسية مغوية ماجنة مفاتن إحدى النساء: "إذا قدر لك اللـه النصر في غزو الطائف، فسوف أقودك إلى ابنة غيلان. إذا أبصرتها من قُبُلها فإنك ترى لها بطنا له أربع طيات وإذا نظرت إليها من دُبُرها رأيت لها ثماني! ثغرها؟ حبة

كرز حقيقية! وما بين فخذيها إناء مقلوب..." عندها قرر رسول اللـه ﷺ: إبعاده ونفيه (حسب مسلم).

ثم طارت آية. تحولت إلى عصفور. أرادت أن ترحل للبحث عن كوكب الزهراء. المرأة الهائمة! بين أحضاني لم أجد غير العتمة والمرارة وقصة إسحق. قبل مغادرة السطح قالت لي آية: "بالأمس في حلمي سمعت بشار الخير يغني وفكرت فيك... فلا تجعل النبوءة التي تؤكد أن غناءه يبشر برؤية حبيب، برؤية عزيز غال - تكذب."

جميع النوافذ كانت مغلقة؛ ميتة.

ثم لا شيء!

وهكذا نسي الجميع أخي إسحق، ولم يبق منه إلا هذه الحكاية.

لقد كان خنثى!

أنا أنتظره.

رؤى فراشة

لقد تقدم الليل كثيرًا.

وصلت إلى بيتي. باب الدار نسي أو ترك مفتوحًا مواربًا.

أحسست بالراحة. لقد قمت أخيرًا بالحداد على أبي وأمي. للمرة الأولى تعرفت على اسم أمي الحقيقي الذي كان مكتوبًا على رخامة قبرها. أنا ابن أمي!

مع أن الباب كان مواربًا فقد أخرجت حزمة مفاتيحي.

كانت الدنيا مظلمة.

تقدمت في الرواق: صورة زوجتي في مكانها داخل إطارها الأصفر المذهب.

شممت عبق الغرفة المألوف ثم عطر زوجتي.

الكتب مبعثرة في كل مكان؛ على الطاولتين وعلى الأرض أيضًا. وهناك جرائد بالعربية وبالفرنسية.

تقدمت. أشعلت مصابيح الرواق الثلاثة. أحدها كان متفحمًا. قفز القط على ركبتي وهو يمُوء. لعله كان جائعًا. تأملته: لقد كان أنثى.. إنه ليس قطنا. إنه القط الآخر الذي كان يعيش مع آية.

خفت. حملته في ذراعي وشممت فيه عبق الحشيش ممزوجًا بعطر آية.

تقدمت. كان القنديل الموضوع على الطاولة مضاء.

وعندما فاجأت إسحق - نعم إسحق.. أخي غير الشقيق - في سريري يحضن زوجتي العارية تمامًا لم أندهش.

انتظرته طويلًا.

هو هنا هذا المساء... هو ابن أمه.

رحت أفكر في جده الذي كان تاجرًا ومهربًا شهيرًا للمخطوطات؛ ذلك الرجل الذي كان قديمًا يملك مملكة من الكتب والرقاق المكتوبة بالعربية والعبرية والتركية العثمانية، لقد كان هذا الجد متصلبًا عنيدًا لم يصافح قط أكلة الخنازير. لقد كان يضع قفازين من جلد الماعز حتى يتجنب مصافحة أي رومي: حتى لا

يلمس اليد النجسة. هذا الجد الذي أنهى حياته على كرسي متحرك وزجاجة الأنيسون بين شفتيه.

لست أدري لم أفكر في هذا الرجل؛ جد إسحق - الهارب من دمشق؛ رحالة الصحراء، اختصاصي خمر النخيل اللاقمي ومنظم سباقات المهاري والخيول وسباقات الحلازين وصياد الغزلان والأروية. هذا الرجل الذي يقول عنه أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم - إن عينيه تستطيعان أن تتفرسا ولو بعد أشهر آثار بهيمة ضائعة مفقودة وأن تتبينا ولو من خلال أثر واحد لخطوتها هل كانت صاحبتها جميلة أو دميمة... النساء اللواتي كن يحملن في الهوادج على ظهور الجمال: ملكة سبأ. نظرت إليه... إسحق.

كان غارقًا في ذاته. لقد كان هو وليس شخصًا آخر. أخي، أعرفه متعبًا كما النعسان حملق في زوجتي وهو يصعد زفرة عميقة متصلة منكسرة. ثم نظر إلي مطولًا وعلى مهل استدار لينام وهو يجذب عليه وعليها غطاء ورديًا معطرًا نظيفًا. وبصوت عسلي عميق أسرَّ في أذن الميتة عبارة رقيقة: "طابت ليلتك.. طاب موتك!"

تأملت الجسدين العاريين وأنا أحملق.

طار النعاس من عينيه فاستدار إسحق إلى زوجتي الغارقة في طمأنينتها الباردة وضمها بين ذراعيه. الجسد العاري ببشرته البيضاء الفضية المضيئة مازال في مكانه.

اللحم مثل الحرير يصحو من موت معلن. كانت بلا حراك ساكنة فاتنة. وكان ممتلئًا برغبة متعطشة وشهوة صارخة. وبحركة سحرية داعب فرج زوجتي - أحسه دافئًا يطلق رائحة فردوسية. لقد سكنه الدفء واستقر في أعماقه. قبل زوجتي على ثغرها ذي الشفتين الممتلئتين الحمراوتين. ثم كما في صلاة طبع قبلة على فرجها الذي يعلوه زغب ثم قبلة أخرى على نهديها المنتصبين المغريين. ثم وطئها. وراحت زوجتي من موتها تطلق في أذني إسحق شهيقًا متصلًا وتنهدًا متوحشًا.

الذئبة!

من على حافة السرير كنت أصغي. أتفرج.

ثم دفنت نظرتي.

نظرت إلى قدمي العاريتين وحدقت في

أصابعي العشر الوسخة المقرفة.

شيء غريب.

كانت أمي تقول لي وتردد: "لقد ورثت عن أبيك أصابع قدميك إنها نسخة من أصابعه."

تفحصت أكثر أصابع قدمي العشر القذرة.

راح صرير أرجل السرير يعلو... تك؛ تك تاك...

انتبهت للمرة الأولى أن لي إصبعين ملتصقتين: الصغرى تنام تحت الأخرى الأكبر. انفجرت ضاحكًا. زوجتي تنام في موتها. لم تعد تتحرّك. وكيف تستطيع المكوث هكذا دون التفات؟

دلك إسحق أسفل بطنه.

اكتشفت اللحظة أن قدمي مشوهتان.

أخفيتهما في جوربين وسخين تعودت أن أخفيهما تحت السرير الذي يصر. لم أكن أود أن يطّلع أخي وزوجتي في موتهما أو في سفرهما على هذه الدمامة وعلى هذا القبح. زوجتي تحب العطر والروائح الزكية. لم تنس قط أن ترش بالعطر أغطية فراشنا ولا تبابيني

وملابسي الداخلية.

ليس لأصابع قدمي أي شبه بأصابع أبي. قدماي أصغر وإصبعاي الكبيرتان بلا أظافر وتحملان نتوءًا مثل الحافر. أمر غريب!

آية، أختي غير الشقيقة التي جربت معها رجولتي وبلوغي لأول مرة، في سن الحادية عشرة وربما أكبر قليلًا - قالت لي: "- لك عينان تشبهان عيني أبيك".

لماذا أفكر في كل هذا؟ خلسة عن كل العالم من حولي نظرت إلى نفسي في المرآة، استرقت نظرات خاطفة إلى وجهي ببشرته التي كانت باستمرار شاحبة أو بيضاء. بحثت عن أبي في ذاتي دون جدوى. لا أثر. لم يكن مسموحًا للذكور أن ينظروا إلى أنفسهم في المرآة.

المرايا هي مملكة النساء والفتيات. إنها مثيلاتهن. كنت أتأملني خفية في مرآة أختي آية. كانت تملك ثلاث مرايا: واحدة ترى فيها عينيها وأخرى تتأمل وتقيس فيها ارتفاع وانتصاب نهديها الرائعين اللذين ينفران من صدرها يومًا بعد يوم. أما المرآة الثالثة فكانت

أكبر ومكبرة وكانت تستعملها في التفرج على قدها وخصرها النحيل الممدود الذي كان يكبر أكثر فأكثر كل صباح.

فحصت ماء عيني بعمق. أغمضت عيني ثم فتحتهما. أطلْتُ تفحُّص العين اليمنى التي وجدتها أكبر من اليسرى بقليل. ورحت أتأمل عمق لونهما اللوزي.

وهربت من المرآة، سحبت منها ملامحي. امَّحيت. نظرت إلى زوجتي في موتها البهي. لقد كانت فاتنة مغرية. كانت تنام كالطفلة بين ذراعي إسحق. يبدوان ملاكين. إثمين كبيرين.

لماذا أفكر في كل هذا؟

ليس صحيحًا: لم تكن عينا أبي تشبهان عيني لا في الشكل ولا في اللون ولا في النظرة. كان عمق نظرته بلون الماء... زرقة تغير سماءها مع اتجاه الريح وقوتها ومع تعاقب الفصول التي لها بدَورها حرارتها وقصصها.

علـى كـل ليسـت لـي عينـا أبـي. عينـاه هـو كـانتا أكثـر وداعـة وأكثـر جمـالًا وسـماوية فـي زرقتـهما، أمـا عينـاي فلـيس لـهما قـاع. همـا محفورتان لا تقولان

شيئًا ولا تتنغمان بلحن.

توقفت طقطقات السرير الذي كان إسحق وزوجتي راقدين عليه. كانت زوجتي تقول لي إن عيني لوزيتا اللون أو عسليتان ولهما عبق الإثم... لا أدري!...

دون أن يعلم أحد - وللمرة الأخيرة - حدقت طويلًا في لون ماء عيني: إنهما سوداوان... وماذا يهم!!... وهما يعبقان برائحة الخطيئة وعطر التيهان والشرود.

أصغر أخواتي جوهرة كانت تؤكد لي أن شعري مثل شعر أبي.

لقد نسيت أن أخبركم أنني أخ لست أخوات: رحيمة ومليحة وربيحة وفهيمة وكاهنة وجوهرة. هذا ليس مهمًا!.

أنا عشت داخل مملكة البائسات.

كن تقريبًا في نفس السن، لم يكن بين الكبرى والصغرى أكثر من خمس سنوات كفارق زمني. كن يلبسن نفس الثياب وينتعلن نفس النِّعال، وكانت مقاساتهن واحدة، وكثيرًا ما كان العراك يحتدم بينهن حول الملابس والأحذية، وخاصة

حول الخرق والمناديل التي تستعمل خلال الدورة الشهرية، قماش ما بين الفخذين.

لقد كن يتجاذبن الشعور ويتقاذفن بالشتائم والألفاظ البذيئة، إنهن يصبحن شرسات مجنونات أيام الحر في الصيف وخصوصًا في الأيام الثلاثة التي تأتي بعد فترة العادة الشهرية.

كان شعر أبي أشقر ناعمًا وكنت أغار من طريقة تسريحه وتمشيطه. وكان يقف منتصبًا مثل ممثلي السينما الإيطالية. تأملت نفسي في المرآة. ليس لدي على هذا الرأس المدور، غير نتف سوداء شعثاء متسخة، لماذا أفكر في كل هذا؟

كالعادة وككل مساء، كانت أخواتي الست يعبثن بعضوي التناسلي، كن يتناوبن على تناوله وإدخاله في أفواههن اللزجة الرطبة، كن يرضعنه، لقد كبر في هذه الأفواه الستة.

وكنت أعشق لعبة الفم والعضو التناسلي هذه. وكان ينمو كل يوم سنتيمترًا.

لقد كنت مدللًا. أمي كانت على علم بما تفعله أخواتي الست بعضوي البائس. كانت تتظاهر

بأنها لا تعلم شيئًا ولا ترى شيئًا.

آه! أمي: أعرفها... هي من عجينة فريدة.

آية... هي أيضًا كانت مدللة. بعد كل موعد لعادتها الشهرية كانت أخواتي الست يساعدنها على حل ضفائرها وخلط شعرها بجدائل من الصوف مصبوغة بالأحمر والأسود. كن يجدن هذا مسليًا.

لم يكن لأخواتي الست من شاغل سوى عضوي التناسلي وضفائر آية. لقد كانت أخواتي الست يكتشفن مع كل مساء تمائم جديدة حول أعناقهن أو خصورهن أو تحت المخدة أو في ملابسهن وفي الخرق التي يستعملنها لدم حيضهن. تمائم: بعض قصاصات الورق المكتوبة بالعربية، بعض الآيات... بعض كلام اللـه أو الرسول عليه السلام مكتوب على وريقات كنَّ يخفينها في شعورهن... لقد كان هذا ما يشغل أمي زهرة ويقلقها... هاجسها.

وحتى تنال أمي بركة الفقيه ورضاه كانت تهرب وتهدي كل ما كان عندنا: فاكهة، بنًا، سكرًا، بيضًا، زبدة، دواجن... إليه. بعض كلمات تكتبها

يده السحرية على ورقة مدهونة أو ترسمها على قاع صحن من الطين الأحمر تذوب في قليل من الماء لتشربها أخواتي العانسات، وهكذا تحل بركة السماء ويحط الحظ. ولكن دون جدوى!

في تلك السهرة المشهودة انضمت إلينا أمي في تلك الغرفة الضيقة الطويلة التي لم تكن لها نافذة. غرفة عارية ليس بها إلا مخرج يعكس ضوءه بطريقة غريبة ظلالنا على الحائط المبيض بالجير... حيث تبتلع بناتها الست بشراهة عضوي الحميمي وهن يتناوبن عليه من الكبرى إلى صغراهن: رحيمة ثم مليحة ثم ربيحة ثم فهيمة ثم كاهنة وأخيرا جوهرة. تقدمت أمي زهرة في فستان حريري أزرق كحلي طويل بخطوة متباطئة حذرة محترسة.

انطبع في نظرتها تعبير دقيق عدواني ماكر في آن، سلَّطتهُ علي حارقًا، خفضت بصري... دفنته بين قدمي: ثم غمغمت: "الفاهم الحاذق من غمزة والحمار بالدبزة" كان في يدها منديلٌ حريريٌّ عليه وَشْيٌ يصور واحات وسعفًا. وبسرعة لفته حول عنق أختي الكبرى. وراحت تشد بقوة، بقوة، بقوة، بقوة....

لم تتحرك أختي، لم تبد أية مقاومة، كأنها كانت تنتظر هذا التصرف من طرف أمي... منذ...

تابعت المشهد حتى اللحظة التي صار فيه وجه أختي أزرق، زرقة بحر... ثم زرقة مسودة.

أشحت ببصري.

لم تصرخ أختي رحيمة، لا شيء... لا شيء البتة.

أنا لا أحب البحر، لا أحب الزرقة!

نظرت إلى وجه أمي، لقد تغير لونه، لقد غزته مسحة خفيفة وردية من فرح ورضا، ثم نقلت بصري إلى وجه أختي، لقد كان هادئا في صمته وسكينته العميقة... في زرقته... في زرقته المسودة، بهدوء وبحركة متناسقة ساذجة جذبت أمي منديلها. أخرجت لحافا أبيض جديدا من علبة تغليفه ونشرته ثم غطت به وجه أختي... سترت به زرقتها وصمتها.

هكذا ومنذ ذلك الحين لم أر قط وجه أختي الكبرى.

لقد كانت بلا حراك. ثلاث من أخواتي بلن في

ثيابهن وأنا كذلك. ومن حينها لم يدخل عضوي التناسلي إلى أفواههن الرطبة اللزجة.

ولم تكن أخواتي الأخريات ينتظرن إلا دورهن... ساعة المنديل... ثم دفنها أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم.

وزارة الدفاع هو الآخر وللمرة الأولى في حياته بكى ميتًا: أختي يوم دفنها، وبدافع الغيرة هجرته زوجته الجديدة ذات الاثنتي عشرة سنة التي جامعتها بعد سبعة عشر عاما بين قبري والدي. هجرته مدة ثلاثة أشهر، كانت تعتقد أن وزارة الدفاع يخونها مع أختي، لم يكن ذلك صحيحًا. بعض من أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم - كانوا يرددون أنه منذ يوم دفنها هجر فراش زوجاته الثلاث.

سبعة أيام بلياليها امتنع خلالها عن أكل الأرانب التي كانت تعيش وترعى في المقبرة بين القبور وعظام الموتى.

أبي من جهته ومنذ اليوم التالي لدفنها قرر الرحيل للحج. وقرر هو الآخر الانقطاع عن استهلاك الخمر، في الواقع لم يتوقف أبدًا عن هذه الهواية حتى بعد عودته من البقاع

المقدسة.

وصرت أنا منبوذًا مهجورًا... عضوي التناسلي هو الذي صار كذلك من طرف الأفواه... الأفواه الخمسة الباقية. من عمق سواد الليل كنت أصغي - كما في حلم - إلى تمتمات أخواتي وهي تقطر كنسيج من ماء الحياة في أذني. أذن الثعلب!

أصوات خطاطيف في الغسق.

وعندما تنتهي الثرثرة يكون كانون الحكايا قد خمد ولم يبق غير خيط رفيع الدخان يتصاعد من رماد الرؤوس الخمسة. من حينها لم يزر عضوي التناسلي أيًا من الأفواه الخمسة، إلا مرة واحدة حدث هذا بعد ذلك بمدة مع آية.

قطرة الندى الأخيرة في اليد.

بلاغة السفاد

"الطير الحرْكِيْ يقبَض ما يتحركش".

جالسا على ركن السرير أصغي، أتأمل.

لقد عاد إسحق هذا المساء. هو بيننا. بين أحضان زوجتي، هل ماتت؟

هل تمارس المتوفيات الجنس؟

الشهوة الأنثوية لا تموت أبدًا.

عندما فرغ من وطئها غطاها بلحاف وردي، من بين شفتيها أخرجت ابتسامة ملائكية قداسية. وشيئًا فشيئًا لطخت ثلاث قطرات من منيه اللحاف الوردي تحت ضوء أبيض مزرق ينبعث من قنديل السرير.

كان ينظر داخل عيني زوجتي السوداوتين نصف المفتوحتين، وابتسامة خفيفة معلقة على شفتين مازالتا ملونتين بحمرة غزالة. ابتسمت له... في موتها، في صمتها، في غيابها أو في بستان شهوتها ورضاها.

وسكنته من جديد الرغبة في أن يواقعها،

أحس نفسه متعبًا، قبلها، ضمها إليه، شعر بها باردة ثم دافئة.

عضوه التناسلي الصغير المحاط بزغب شبيه بعصفور صغير كان يبعث دفئًا، ورائحة ريحان كما من جنة عدن.

ورحت أفكر في خطبة الفقيه عن الخنثى.

إسحق الخنثى.

تسللت داخل السرير. تمددت بين زوجتي وإسحق... أخي فر النعاس من عيني.

غادرت السرير.

حضرت لي فنجان قهوة، أنا أحب القهوة بلا سكر. وفي انتظار القهوة تناولت كأس نبيذ. أحب أيضًا بل أعشق - وربما أكثر - الكؤوس التي أصب فيها نبيذي، زوجتي هي أيضًا تعشق أشكال الزجاجات والقنينات والملصقات السوداء على بطونها. منذ عامي الأول مع هذه المرأة وأنا أجمع الزجاجات والأكواب الخاصة بشرب النبيذ. لقد كنت دومًا أحب خصور قناني الزجاج المملوءة خمرًا مثل امرأة جميلة مليئة بالأسرار والإغراء.

"أحب سر المرأة وسر الخمر!"

هي تحب القناني المصنوعة بذوق جمالي رفيع... القناني التي اقتنيتها خلال كل سفر من أسفاري.

كنا نقضي سهرات، بل ليالي كاملة نعيش الوقت فيها - كل الوقت - نمارس الجنس ونتأمل في شكلٍ طقوسي صفًا من القناني لعشرات الماركات من النبيذ.

أحب شكل زجاجة الأورانجينا، شكل هذه الزجاجة يليق بالنبيذ وليس بعصير البرتقال، كنت أردد لزوجتي باستمرار أن هذه الزجاجة متخيلة عن الجسد المغري لراقصات الفلامنكو الأندلسيات.

لقد لسعتها الغيرة عندما سمعتني أقص قصة راقصة الفلامنكو.

حتى القصص الجميلة والأكاذيب البهية تشعل الغيرة في قلوب النساء والرجال.

ينام إسحق نومًا عميقًا مثل طفل. من حين لآخر يحك أسفل بطنه، عادة سيئة حسب أمه سارة، بذل جهده لينساها، لكنها عادةٌ تلازمه

حتى خلال نومه.

هذا المساء تأكدت أن أبي قد رحل، لن يعود اليوم ولا غدًا.. لن يعود أبدًا، رجعت إلى سريري بين زوجتي وإسحق، وجدته قاسيًا صلبًا مثل تابوت.

زوجتي تتحرك في موتها. انتابتني رغبة في أن أجامعها... في أن ألون حلمها بالمني. هي تحب ذلك!

ممددًا إلى جانبها كان إسحق يشخر ويفرك أسفل بطنه، ورحت أفكر في قبر أبي.
وشرعت أرتل بعض الآيات القرآنية، يقال - حسب الشيخ النفراوي - إن قراءة القرآن تهيئ الجماع وتيسره... القرآن إذن هو الكلام الطقوسي. المقبِّل المسبب للجماع، أحب قراءة القرآن.

كثيرًا ما كنت أقرأ القرآن باكيًا... إنها حالة روحية. أكره الفقيه، هذا المجنون عاشق أمي زهرة.

كنت أعلم أن زوجتي لم تمت، لقد كانت مسافرة! النساء لا يمتن، لا يمتن أبدًا، إنهن تُسافرن. وغادرت سرير الثلاثة.

سحبت جسدي... جثتي.

جالس على ركن السرير وقدح النبيذ في يدي، أعري ببصري تقاسيم زوجتي، إنها جميلة في موتها، وابتسامتها الخفية المرتسمة في عينيها - فاتنة وماكرة!

وعندما التفت كان القدح في يدي فارغًا.

زوجتي لم تكن هناك.

لقد طارت.

أنا أحدق وأحملق في الجسد الذي مازال ممددًا على سريري: إنها آية.

إنها طليقة مبتسمة ودون سلسلة حول المعصمين.

Notes

[1←]
الماء الحيّ أو ماء الحياة هكذا في النص الأصلي.

[2←]

الجاموس: حوافر الخيل أو أظلاف البقر.